



جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

منهجيات في تدبر القسم في القرآن الكريم مع بحثين تطبيقيين

إعداد الدكتورة

فلوة بنت ناصر بن حمد الراشد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن
الرياض - المملكة العربية السعودية

مسئلة م

حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد الثالث والثلاثون، لعام ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠١٤/6157

ملخص البحث

موضوع القسم في القرآن من الموضوعات المصنفة ضمن موضوعات علوم القرآن، وفكرة البحث تقوم على دراسة الموضوع بمنهجية التفسير الموضوعي ولذلك أرفقت به بحثين تطبيقيين لتوضيح الفكرة وقد قسمت البحث لقسمين الأول منه الجانب النظري وفيه مباحث منها: معنى القسم. دلالة القسم في اللغة. أهمية القسم في خطاب القرآن. أساليب ورود القسم في القرآن: وفيه مطلبان: الظاهر - القسم المضمّر. كيف نتدبر الآيات الواردة في سياق القسم: وفيه مطلبان: - **المطلب الأول:** على مستوى القرآن. **المطلب الثاني:** على مستوى السورة. **والقسم الثاني:** الجانب التطبيقي: وفيه: **أولاً:** مثال تطبيقي على تدبر القسم باعتبار السورة: القسم في سورة الضحى. **والثاني:** مثال تطبيقي لتدبر القسم على مستوى القرآن: القسم بالقرآن في القرآن.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأصلي وأسلم على نبينا محمد على آله وصحبه وسلم

أما بعد:

فإن القرآن الكريم أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبلغهم مراد الله منهم قال تعالى: { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (64) سورة النحل.

فكان المقصد الأعلى صلاح الأمة وهدايتهم إلى طريق المستقيم وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بينا وتعبدنا بمعرفة مراده والإطلاع عليه فقال: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ } ((ص: 29)).

وقد اختار الله اللسان العربي مظهراً لوحيه حيث كان لسانهم أفصح الألسن، وكانت هذه اللغة أكثر اللغات تحملاً للمعاني مع إيجاز اللفظ فتحداهم مع فصاحتهم أن يأتوا بمتله فصار معجزة ليكون آية دالة على صدق رسوله.

{ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } (العنكبوت: 50).

ومن الأساليب العربية التي أظهرت إعجاز كتابه: استخدام القسم للوصول للمعنى المراد، إذ أن القسم من الأساليب العربية التي يتوصل بها إلى تأكيد الأمر، فإذا ورد القسم في أي موضوع في القرآن فالدلالة الأولية له أهميته والعناية به ولنتأمل قوله: (هل في ذلك قسم لذي حجر) وكذلك (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم).

ولو عشنا حقيقة القسم-، بل عشنا حقيقة القرآن كله من كون المتكلم به هو الله والذي يقسم هو الله لحق لقلوبنا أن تذب، يقول الحارث المحاسبي: قلت قد علمت أن في فهمه النجاة وفي الإغفال عنه الهلكة فلو ذاب أهل السموات وأهل الأرض حين يسمعون كلام الله (Y) أو ماتوا خمودا أجمعون لكان ذلك حق لهم ولما كان ذلك كثيرا إذ تكلم الله (Y) به تكلما من نفسه من فوق عرشه من فوق سبع سمواته فإذا عظم في صدرك تعظيم المتكلم به لم يكن عندك شيء أرفع ولا أشرف ولا أنفع ولا أذ ولا أحلى من استماع كلام الله جل وعز وفهم معاني قوله تعظيما وحباً له وإجلالا إذ كان تعالى قائله فحب القول على قدر حب قائله⁽¹⁾.

ولسنا في هذه الدراسة بصدد مناقشة شبه أو تفرعات لغوية بقدر القصد إلى معرفة الاهتمام بالقضايا التي وردت في سياق القسم وتدبر ما فيها من فوائد من شتى الاتجاهات.

الهدف من البحث:

دراسة موضوع القسم في القرآن بمنهجيات متنوعة تجمع بين هذا الموضوع في مجال علوم القرآن، وبين دراسته في التفسير الموضوعي، بالإضافة للأصل وهو التفسير التحليلي. فينسبك من ذلك مناهج متعددة تسهم في عمق التدبر لهذا الموضوع.

إجراءات البحث وحدوده:

سيركز البحث على بناء المنهجية وبالتالي ستكون الدراسة الشاملة لأمثلة فقط من آيات القسم على حسب ما رسم من منهجيات وهي التي ستأتي في القسم الثاني من البحث، أما باقي آيات القسم فسيتم جمعها لاستقراء موضوعات المقسم به والمقسم عليه ومن ثم تدبر المنهجية الأشمل لتدبر موضوع القسم في القرآن.

الدراسات السابقة:

يطرح موضوع القسم عادة في علوم القرآن فهو أحد الأنواع التي ذكرها السيوطي في الإتيان، وغيره ممن كتب في علوم لقرآن سواء ضمن مؤلف عام لكل علوم القرآن أو ممن أفرده بالتصنيف كما هو عادة العلماء في مناهجهم في التصنيف، وممن أفرده بالتصنيف: ابن القيم في كتابه: (التيبان في أقسام القرآن)، عبدالحميد الفراهي في كتاب (إمعان في أقسام القرآن).

ومن الأبحاث في هذا الموضوع: (التناسب بين القسم المفرد وجوابه في القرآن الكريم للدكتور / ناصر بن محمد آل عشوان) منشور في مجلة تبيان - العدد السادس. وهي دراسة لها تعلق كبير بالبحث، وستكون مرجعا لي في البحث، ولكنها دراسة اعتنت كما هو العنوان بأوجه التناسب بين المقسم به

(1) (فهم القرآن - (ج 0 / ص 302).

منهجيات في تدبر القسم في القرآن الكريم مع بحثين تطبيقيين

والمقسم عليه، وهذا أحد الأمور التي ستكون مقصدا في البحث، ولكن هذا البحث اعتنيت فيه بالمنهج الذي من ضمنه هذه المسألة.

خطة البحث:

سأقسم البحث إلى قسمين:

القسم الأول: الجانب النظري وفيه مباحث:

المبحث الأول معنى القسم. المبحث الثاني: دلالة القسم في اللغة.

المبحث الثالث: أهمية القسم في خطاب القرآن.

المبحث الرابع: أساليب ورود القسم في القرآن: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: القسم الظاهر - المطلب الثاني: القسم المضمّر.

كيف نتدبر الآيات الواردة في سياق القسم: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: على مستوى القرآن. المطلب الثاني على مستوى السورة.

القسم الثاني: الجانب التطبيقي:

أولاً: مثال تطبيقي على تدبر القسم باعتبار السورة: القسم في سورة الضحى.

ثانياً: مثال تطبيقي لتدبر القسم على مستوى القرآن: القسم بالقرآن في القرآن.

القسم الأول الجانب النظري

وفيه مباحث:

المبحث الأول معنى القسم

القسم لغة: إفراز النسيب، يقال: قسمت كذا قسماً وقسمة، وقسمة الميراث، وقسمة الغنيمة: تفريقهما على أربابهما، قال: {لكل باب منهم جزء مقسوم} [الحجر/44]، {ونبئهم أن الماء قسمة بينهم} [القمر/28]، وأقسم: حلف، وأصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على أولياء المقتول، ثم صار اسماً لكل حلف. (1) وقال الفراهي: (القسم في أصله للقطع. ومنه قسمت الشيء وقسمته. والقطع يستعمل لنفي الريب والشبهة) (2).

القسم اصطلاحاً: القَسَم هو يمين يُقسِم بها الحالف ليؤكد بها شيئاً يُخبر عنه من إيجاب أو جحد وهو جملة يؤكد بها جملة أخرى فالجملة المؤكّدة هي المُقسَم عليه والجملة المؤكّدة هي القَسَم والاسم الذي يدخل عليه حرف القَسَم هو المُقسَم به. (3)

(1) المفردات في غريب القرآن (2 / 242).

(2) إمعان في أقسام القرآن - (ص 15).

(3) المخصص لابن سيده، - (3 / 178).

المبحث الثاني دلالة القسم في اللغة

إن الإنسان ربما يحتاج إلى تأكيد خبر أو وعد منه، حين يريد أن يعتمد عليه المخاطب وتطمئن به نفسه، ولا سيما في الأمور العظيمة كالمعاهدة بين قوم وقوم أو بين ملك ورعيته أو بين أفراد الناس، ليكونوا على ثقة بعضهم من بعض، فيعلموا الموافق من المخالف والولي من العدو. وهذه الحاجة دعتهم إلى طرق وكلمات خاصة يعبرون بها عن هذا التأكيد. فكان ذلك أصل قسمهم.⁽¹⁾

ومن هنا قسم علماء البلاغة أسلوب الخبر إلى ثلاثة أقسام:

أ- ابتدائي، ويُلقَى لخالي الذهن من غير توكيد.

ب- طلبي: ويلقى لمن داخله الشك مؤكداً بأداة من أدوات التوكيد.

ج- إنكاري، ويلقى لمن أنكر القول مؤكداً بأكثر من توكيد.⁽²⁾

فالقسم أعلى أنواع التوكيد فيستعمل كثيراً مع المنكرين.

ولأهمية دلالة هذه الكلمات على التأكيد، والتوثيق، ترتب على مخالفته أحكاماً

شرعية مثل: اليمين الغموس، والحنث، وكفارة اليمين.

(1) إمعان في أقسام القرآن - (ص 10).

(2) دراسات في علوم القرآن - محمد بكر إسماعيل (ص: 317).

المبحث الثالث

أهمية القسم في خطاب القرآن

القرآن الكريم نزل بلغة العرب فالقسم إجمالاً على أصله من حيث دلالاته على توكيد الأمر. قال: أبو القاسم القشيري (ذكر الله القسم لكمال الحجة وتأكيداتها وذلك أن الحكم يفصل باثنتين إما بالشهادة وإما بالقسم فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) وقال (قل إي ربي إنه لحق) وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق) صرخ وقال من ذا الذي أغضب الجليل حتى أُلجأ إلى اليمين).⁽¹⁾

فمجيء القسم من باب تصريف الخطاب وتلويحه: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (113) طه.

وقد أشيد بدور القسم في تأكيد أهمية القضايا التي وردت في سياقه في مثل: قوله (هل في ذلك قسم لذي حجر) وهو سؤال للتقرير، أي إن في ذلك قسماً لذي لب وعقل، إن في ذلك مقنعاً لمن له إدراك وفكر، إذا هي دعوة لأصحاب الحجر والعقول أن يتدبروا في أجزاء القسم وماذا أريد من العاقل فهمه.

قال الزركشي: (وَهُوَ عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ جُمْلَةٌ يُؤَكِّدُ بِهَا الْخَبْرَ، حَتَّى إِتْمَمُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} فَسَمًا وَإِنْ كَانَ فِيهِ إِخْبَارٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ تَوْكِيدًا لِلْخَبَرِ سُمِّيَ قَسَمًا.

وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِاسْمِ مُعْظَمِ كَقَوْلِهِ:

{فُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لِحَقٌّ} [الذاريات: 23]

وقوله: {قُلْ إِي رَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ} [يونس: 53].

وقوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ} [التغابن: 7].

وقوله: {فُورَبِكَ لَنَحْشُرَنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ} [مريم: 68].

وقوله: {فُورَبِكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: 92].

وقوله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} [النساء: 65].

وقوله: {فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [المعارج: 40].

قال الزركشي: (فَهَذِهِ سَبْعَةٌ مَوَاضِعٌ أَقْسَمَ اللَّهُ فِيهَا بِنَفْسِهِ وَالْبَاقِي كُلُّهُ أَقْسَمَ بِمَخْلُوقَاتِهِ).⁽²⁾ ومن المواضع أيضا قوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سبأ: 3].

(1) الإتيان - (ج 2 / ص 350).

(2) البرهان في علوم القرآن (3/40).

منهجيات في تدبر القسم في القرآن الكريم مع بحثين تطبيقيين

ومما يعكس أهمية القسم عدد السور المفتحة بالقسم: خمس عشرة سورة، وهي: الصافات و الذاريات والطور والنجم والمرسلات والنازعات والبروج والطارق والفجر، والشمس والليل والضحى والتين والعاديات والعصر. وهناك سور افتتحت بالقسم ولكن بعد الحروف المقطعة التي تفتتح بها هذه السور مثل سورة: ص، يس.

المبحث الرابع

أساليب ورود القسم في القرآن

ورد القسم في القرآن بطريقتين هما: القسم الظاهر - والقسم المضمّر.

المطلب الأول: القسم الظاهر:

وهو الذي توفر فيه أركان القسم كلها أو أغلبها.

وأركان القسم: فعل القسم، أداة القسم، المقسم به، المقسم عليه.

فعل القسم: من أفعال القسم عامة: اليمين، والنذر، والألّية، والقسم، والحلف. وأشهرها في القرآن القسم، لكن الفعل كثيراً ما يحذف. قال ابن الأنباري (إن قال قائل: لِمَ حذفت فعل القسم؟ قيل: إنما حذفت فعل القسم لكثرة الاستعمال).⁽¹⁾ ومما ورد بذكر فعل القسم: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1)} [البلد: 1] وقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنِجَاءِ تَتَهُمْ آيَةً لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا} [الأنعام: 109] ومما ذكر بفعل الحلف: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ} [التوبة: 56].

أداة القسم: وهي الدالة على القسم مثل: الباء-التا-الواو، قال ابن سيده: (وأصل هذه الحروف الباء والتاء صلة للفعل المقدر ولك الفعل أحلف أو أقسم أو ما جرى مجرى ذلك فإذا قال بالله لأضربن زيداً فكأنه قال أحلف بالله، وجعلوا الواو بدلاً من الباء وخصّوا بها القسم لأنها من مخرج الباء واستعملوا الواو أكثر من استعمالهم الباء لأن الباء تدخل في صلة الأفعال في القسم وغيرها فاخترت الواو في الاستعمال لانفرادها بالقسم)⁽²⁾.

وأكثر الأقسام في القرآن المحذوفة الفعل لا تكون إلا بالواو فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل كقوله: وأقسموا بالله - يحلفون بالله - ولا تجد الباء مع حذف الفعل. والقسم كما ذكر السيوطي: إما ظاهر وإما مضمّر.⁽³⁾ وعد من الظاهر ما تواجد فيه المقسم به وأداة القسم.

المقسم به: لا يكون القسم إلا باسم معظم⁽⁴⁾ وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع كما أسلفنا، كما أقسم سبحانه بالقرآن الكريم والباقي كله قسم بمخلوقاته ومما وقع القسم به:

(1) أسرار العربية (ص: 203).

(2) المخصص - (ج 3 / ص 178) وانظر: أسرار العربية (ص: 203).

(3) الإتيان (350/2)..

(4) الفراهي لا يرى هذا القول ويعده شبهة، فأقام كتابه (إمعان في أقسام القرآن) في الإجابة على ذلك ولذا فهو لا يرى كون المقسم به من أركان القسم.

النبى (ع)، الملائكة، الأزمنة كالضحى والليل والفجر ويوم القيامة، المخلوقات وخاصة الأجرام السماوية كالسما والارض والنجم والشمس وغيرها، أو المخلوقات الأرضية مثل التين والزيتون والخبيل. قال السيوطى فإن قيل كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهى عن القسم بغير الله قلنا أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف أى ورب التين ورب الشمس وكذا الباقى.
الثانى: إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما

يعرفون

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه والله تعالى ليس شىء فوقه فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع. وقال ابن أبى الإصبع فى أسرار الفواتح القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.⁽¹⁾

وعن الحسن قال: (إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله)².

المقسم عليه: وهو الأمر الذى يساق القسم لأجله توكيدا وتوثيقا، فلا بد أن يكون بما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسما والارض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها، وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس.

ولما كان الغرض الرئيسى من القسم هو جواب القسم، إذ أن القسم مسوق لتأكيد أمكننا بذلك رصد مهمات الدين التى قدمت لنا فى القرآن بأعلى درجات التوكيد، قال ابن القيم: (إذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها:

- تارة يقسم على التوحيد.
- وتارة يقسم على أن القرآن حق.
- وتارة على أن الرسول حق.
- وتارة على الجزاء والوعد والوعيد.
- وتارة على حال الإنسان.

(1) المرجع السابق.

(2) أخرجه ابن أبى حاتم.

فالأول كقوله {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهُكُمْ لُؤاحِدٌ (4)} [الصافات: 1 - 4]
 والثاني كقوله {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)} [الواقعة
 وقوله {حم (1) وَالكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)} [الدخان] وقوله: {حم (1) وَالكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)} [الزخرف: 1 - 3] إذ جعل ذلك جواب القسم كما هو الظاهر).

والثالث: القسم على الرسول كقوله {يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)} [يس: 1 - 3] إذا قيل هو الجواب وإن قيل الجواب محذوف كان كما ذكر ومنه {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)} [القلم: 1 - 4] ومنه {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)} [النجم] إلى آخر القصة، ومنه قوله {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصَرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ (42)} [الحاقة] وقوله {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22)} [التكوير].

وأما القسم على الجزاء والوعد والوعيد ففي مثل قوله {وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6)} [الذاريات: 1 - 6] ثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر الجنة والنار وذكر أن في السماء رزقهم وما يوعدون ثم قال {فُوربِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلُ مَا أَنْكُمْ تُنطِقُونَ} ومثل قوله {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عَذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7)} [المرسلات] ومثل قوله: {وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8)} [الطور].

وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات فقال تعالى: {وَسَتُنَبِّئُوكَ أَحَقَّ هُوَ قَوْلُ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53)} [يونس: 53].

وقوله: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7)} [التغابن: 7].

وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سبأ: 3] وأما القسم على أحوال الإنسان فكقوله {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3) إِنْ سَعَيْكُمْ لُشْتَى (4)} [الليل: 1].

وقد يحذف الجواب وأكثر ما يحذف إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه فإن المقصود يحصل بذكره فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز،

وكثيرا ما يحذف جواب القسم في القرآن كقوله تعالى: {وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)} [الفجر 1 - 8]. وقوله تعالى: [ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)] [ق 1 - 3]. وقوله (I): {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتَّبِعُهَا الرَّاْدِفَةُ (7)} [النازعات 1 - 7].

فجواب القسم في ذلك كله محذوف يفهم من السورة التي ورد فيها هذا القسم، وإن في هذا الحذف بعث النفس على التفكير، لتتهدى إلى الجواب، وتظل النفس تتبع هذه الآيات، يتلو بعضها بعضا، تستوحى منها هذا الجواب، الذي لا بد أن يكون شيئا عظيما يقسم عليه الله، ومع تتبع آيات السورة نجد حديثا عن البعث، وتعجبا من منكريه، مما يؤذن بأن هذا القسم وارد لتأكيد، وأنه سيكون لا محالة، أو لا ترى في حذف هذا الجواب دلالة على مثوله في الذهن لشدة ما شغل النفس، واستأثر بعميق تفكيرها، يوم نزل القرآن مؤكدا مجيء اليوم الآخر. (2)

(1) انظر: التبيان في أقسام القرآن - (7/1).

(2) من بلاغة القرآن (ص: 99).

المطلب الثاني: القسم المضمّر:

هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به.

قال الزركشي و السيوطي: وهو قسمان: قسم دلت عليه اللام نحو: {تَلْبُونُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا} [آل عمران: 186] وَقَسَمَ دَلَّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى نَحْو: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مریم: 71] تقديره "والله" وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ الْأَلْفَاظُ الْجَارِيَةُ مَجْرَى الْقَسَمِ ضَرْبَانِ:

أحدهما: مَا تَكُونُ كَعَبْرَةٍ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي لَيْسَتْ بِقَسَمٍ فَلَا تُجَابُ بِجَوَابِهِ كَقَوْلِهِ: {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الحديد: 8] {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ} [النساء: 154] {يَحْلِفُونَ لَكُمْ} وهذا وَنَحْوُهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا وَأَنْ يَكُونَ حَالًا لِحُلُولِهِ مِنَ الْجَوَابِ.

والثاني: مَا يَتَلَقَّى بِجَوَابِ الْقَسَمِ كَقَوْلِهِ: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 187] {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرْتَهُمْ لِيُخْرِجَنَّ} [النور: 53]⁽¹⁾.

ومن القسم الذي دلت عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: {تَلْبُونُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} (186 آل عمران) أي والله لتبلون. وهذا النوع يكثر وروده في القرآن، ويكون الاهتمام فيه بجواب القسم الذي هو أهم أركان القسم ومن فوائده:

أنه كثيرا ما يحمل الموضوع الذي سيق لأجله القسم طابع السنية فهو مطرد المعنى كلما توفر مضمونه ومن أمثلة ما استفيد اطراده بسبب القسم: {وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} البقرة.

الاهتمام بالخبر الذي يرد القسم في سياقه، ويكثر في سياق الاهتمام بقصص الأنبياء مثل تصدير القصة بقوله: (لقد) في مثل [لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذِبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)] [البقرة]

(1) البرهان في علوم القرآن (3/ 43)، الإتيان في علوم القرآن (4/ 56).

وقوله: [وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاتِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)] [الأنبياء]
وقوله: [لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10)] [الأنبياء] فهو
من أساليب فواتح الغرض المهم.

المبحث الخامس

كيف نتدبر الآيات الواردة في سياق القسم

إذا استحضرننا كون المقسم به لا يكون إلا بمعظم، ثم المقسم عليه هو ما أريد توكيده وسبق القسم لأجله، كل ذلك يدعونا إلى إطالة التأمل في المذكور في آيات القسم،

وللقسم في القرآن الكريم مقاصد كثيرة، وفي طيَّاته مواطن للعظة والعبرة، ومجالات رحبة للتأمل والنظر، ولطائف خفية يكتشفها المؤمن بنور بصيرته، فيزداد بها يقيناً.

ومن المنهجيات الموصلة لهذا الغرض تطبيق بعض مناهج التفسير الموضوعي، فيكون التدبر على مستويين:

- على مستوى السورة. - على مستوى القرآن.

المطلب الأول: على مستوى السورة

ويشمل:

1- تدبر المقسم به: ويشمل:

- معنى المفردة الواردة.
- الحكمة من القسم به، إما بتدبر منفعة أو بتدبر فضيلة، أو بتدبر بديع صنع الله فيه حسب ما يقتضيه المقام.
- إذا تعدد المقسم به في سياق واحد لا بد من إيجاد المناسبات بين المعدود في المقسم به.

2- المقسم عليه: ويشمل:

- معرفة المعنى.
 - تدبر الأهمية التي لأجلها سبق القسم من حيث التوكيد.
 - المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه.
- 3- تدبر المناسبة بين موضوع القسم في السورة وبين الوحدة الموضوعية لها فإن القسم أحد موضوعات السورة فهو يلتحم معها للوصول إلى مقصد رئيسي بالوصول إليه تنبلج للمتأمل للفوائد الكثيرة.

المطلب الثاني: على مستوى القرآن:

وذلك بتدبر أمرين:

1- الأمور التي وقع القسم بها:

وهي متعددة ذكرنا مجملها في أركان القسم. لكن يلفت النظر أن بعض القضايا يتكرر القسم بها في القرآن ولذلك يمكن أن يكون من مسارات تدبر القرآن في موضوع القسم على منهج التفسير

الموضوعي: جمع الآيات التي أقسم الله بها في موضوع واحد عند تكراره، أو في موضوعات حسب زاوية البحث فتجمع فيه عدد المرات التي وقع القسم به بحيث يتم استخلاص أهم القضايا والفوائد الواردة في قالب القسم. مثل:

القسم بالزمان في القرآن⁽¹⁾، فتجمع الآيات الواردة في ذلك وتدرس دراسة تحليلية موضوعية، وبذلك نخرج بفوائد مع الاجتماع تضاف إلى الفوائد المستنبطة من آيات القسم في التفسير التحليلي في المواضع المتفرقة كل في مكانه، ومثلها باقي الموضوعات مثل: القسم بالقرآن في القرآن، القسم بالرسول في القرآن.

2- الأمور التي وقع القسم عليها - جواب القسم - إذ أنه الغرض الرئيسي من القسم، وذلك بنظرة شاملة لأقسام القرآن فإذا استحضرننا الغرض من القسم عموماً أنه تأكيد المقسم عليه أمكننا بذلك رصد مهمات الدين التي قدمت لنا في القرآن بأعلى درجات التوكيد، ويلاحظ أن القضايا الكبرى تكرر القسم عليها فيكون من مسالك التدبر في القرآن رصد القضايا الكبرى باعتبار ورودها في قالب القسم، وكذلك رصد المتكرر منها ودراسته دراسة موضوعية يستنبط معه المقاصد والهدايات المسوقة في جواب القسم. وسبق في مبحث القسم الظاهر رصد أهم القضايا التي أقسم الله عليها بحيث تصلح كل منها أن موضوعاً لدراسة مستقلة.

وفي كلا النوعين يمكن رسم منهج العمل كالآتي:

- جمع الآيات التي وقع القسم بها أو عليها حسب موضوع البحث.
- دراسة القسم في كل سورة على النحو المذكور سابقاً في السورة.
- استنباط أهم الهدايات والفوائد سواء الفوائد للسورة وهي منفردة، أو من اجتماع السور حول هذا الموضوع.

(1) هناك دراسة بعنوان (قيمة الزمن في القرآن الكريم) نشرت في العدد الرابع والسبعون - مجلة البحوث الإسلامية - الإصدار من ذو القعدة إلى صفر لسنة 1425هـ - 1426هـ.

القسم الثاني الجانب التطبيقي

أولاً: مثال تطبيقي على تدبر القسم باعتبار السورة: القسم في سورة الضحى.
نزولها:

ورة الضحى سورة مكية في قول ابن عباس:
زلت بعد سورة الفجر، ونزل بعدها سورة: ألم نَشْرَحْ، (1).

سبب النزول:

عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (٢) قَالَ اخْتَبَسَ جَبْرِيلُ (٤) عَلَى النَّبِيِّ (٤) فَقَالَتْ
امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ. فَنَزَلَتْ {وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى
(2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)}. (2)

وفي رواية مسلم: قَالَ سَمِعْتُ جُنْدَبَ بْنَ سَفْيَانَ يَقُولُ اسْتَكْبَى رَسُولُ اللَّهِ (٤)
فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ
قَدْ تَرَكَكَ لَمْ أَرَهُ قَرِيبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ (٥) (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا
سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) (3).

(1) الأثر أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (ص: 33).

(2) صحيح البخارى - (ج 4 / ص 391) ح 1125.

(3) صحيح مسلم - (ج 12 / ص 121) ح 4758.

المقسم به:

(والضحى):

الضحى: وقتُ ارتفاع الشمس عن أفق مشرقها، وظهور شعاعها، وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس متجاوزة مشرقها بمقدار ما يخيل للناظر أنه طول رُمح. وسجى أي أظلم وسكن.

وفي المراد بالضحى في الآية قولان:

1- وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس. وهو قول قتادة

والسدي، وعليه الأكثرون.

2- وقيل: هو النهار كله لإقرانه بالليل في القسم، وبه قال الفراء وقد رجحه

الطبري عند تفسير لقوله: (والشمس وضحاها)، وضعفه النيسابوري.

فالقول بأنه يعني النهار كله، خلاف الأولى، والاحتجاج على ذلك بأنه

جعل في مقابلة الليل كله لا يصح، وذلك لأنه إنما جعل في مقابلة الليل في

حال سجوه؛ أي في حال استقرار الظلام وسكون الليل والناس فيه، ولا

ريب أن سجو الليل هو جزء من الليل لا كله، فهو بمنزلة الضحى من

النهار. ويمكن الاستئناس في ذلك بوقت صلاة الضحى، فإن وقتها لا يكون

بعد الزوال، مما يؤكد ضعف القول بأن الضحى يمتد ليشمل النهار كله.(1)

(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى): سجا الليل سَجَوْاً بفتح فسكون، وسَجُوا بضمين وتشديد

الواو، إذا سكن. وذلك عند تناهي ظلامه وركوده. ويكون ذلك إذا امتد وطال مدة

ظلامه مثل سجو المرء بالغطاء، إذا غطي به جميع جسده(2).

وقال الراغب الأصفهاني) سجي: سكن، وعين ساجية: فائرة الطرف، وسجي

البحر سجوا: سكنت أمواجه، ومنه استعير: تسجية الميت، أي: تغطيته

بالثوب.(3)

المناسبة بين أفراد المقسم به: المقسم به: الضحى والليل، ويشتركان في

أنهما أزمان، والزمن له قيمة كبيرة في القرآن الكريم، حيث كثر فيه العناية

بالوقت والزمن وتجلى ذلك أكثر في سياق القسم في القرآن فقد أقسم الله بالزمن

سواء بذاته أو بأجزائه كما في القسم بالفجر، والصبح، والضحى، والشفق،

(1) انظر: معاني القرآن للفراء (3/ 273)، تفسير الماوردي = النكت والعيون (6/ 291).

وزاد المسير في علم التفسير (4/ 457)، تفسير الماوردي = النكت والعيون (6/ 291)،

قيمة الزمن في القرآن الكريم.

(2) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: 459) التحرير والتنوير - (ج 16 / ص 280).

(3) مفردات ألفاظ القرآن (ص 461).

والنهار، والليل، والليالي العشر، ويوم القيامة، والعمر، وفي القسم بهذه الوحدات الزمنية تنبيه على:

- أ- الاعتبار بها في الاستدلال على حكمة نظام الله في هذا الكون وبديع قدرته
 ب- ومن جهة أخرى فالزمن مستودع للأعمال التي سيرى الإنسان عاقبتها يوم القيامة الكافر والمؤمن على حد سواء.
 ج- ثم نوع الزمان المذكور هنا يرمز للنور والظلمة التي هي محك مهم في طريق الهدى والضلال.

مناسبة المقسم به لسبب النزول كما ذكر ابن عاشور: (ومناسبة القسم ب {الضحى والليل} أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي (ع) بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام. ولذلك قُيد {الليل} بظرف {إذا سجي}. فلعل ذلك وقت قيام النبي (ع) قال تعالى: {قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً} [المزمل] (1).

جواب القسم:

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3):

قال الراغب: الدَّعة: الخفض. يقال: ودعت كذا أدعه ودَّعاً. نحو: تركته، والتوديع: تحية من يريد السفر. واستعير في الآية للمفارقة بعد الاتصال تشبيهاً بفراق المسافرين في انقطاع الصلة حيث شبه انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة. (2) والمعنى: أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة. (3) وجملة: {وما قلى} عطف على جملة جواب القسم ولها حكمها.

والقلى (بفتح القاف مع سكون اللام) والقلى (بكسر القاف مع فتح اللام): البغض الشديد. (4)، والمعنى كما قال السعدي: (ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت

(1) التحرير والتنوير - (ج 16 / ص 297).

(2) المفردات في غريب القرآن (ص: 861)، التحرير والتنوير - (ج 16 / ص 297)

(3) انظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 928)، التحرير والتنوير - (ج 16 / ص 297).

(4) انظر: مجاز القرآن (2/ 302)، العين (5/ 215)، مقاييس اللغة (5/ 16) التحرير والتنوير - (ج 16 / ص 297).

كمال، فهذه حال الرسول (ﷺ) الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج الكمال، ودوام اعتناء الله به.⁽¹⁾
 فجواب القسم يتناول أمر من مهمات الدين وهو شهادة أن محمدا عبده ورسوله فهذه السورة تناولت هذا الأمر بالقسم بالتأكيد عليه ولكن في أحد أحواله. قال ابن القيم (أقسم على إنعامه على رسوله (ﷺ) وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه وذلك متضمن لتصديقه له فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة فهو قسم على النبوة والمعاد وأقسم بأيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما الليل والنهار)⁽²⁾.
المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

هناك مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وقد تنوعت عبارات المفسرين في التعبير عنها ولعل من أطفها وأشملها عبارة ابن القيم حيث قال: (فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافق بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمدا ربه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه وأيضا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس وهذان للعقل؟ وأيضا فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدا بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم فلا يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وأخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها، ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه فالتوديع الترك والقلبي البغض فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه ولا أبغضه منذ أحبه وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها ثم وعده بما تقر به عينه وتقرح به نفسه وينشرح به صدره وهو أن يعطيه فيرضى وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الأتباع ورفع ذكره وإعلاء كلمته وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه في موقف القيامة وما يعطيه في الجنة وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار فهذا من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار

(1) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 928).

(2) (التبيان في أقسام القرآن - ص 47).

والعصاة ثم يحد لرسوله حدا يشفع فيهم ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحد من أمتي النار على أن يدعه فيها بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد تبيئته وهدايته بعد الضلالة وإغنائه بعد الفقر فكان محتاجا إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه فأواه ربه وهداه وأغناه فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر فنهاه أن يقهر اليتيم وأن ينهر السائل وأن يكتم النعمة بل يحدث بها فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين قال مجاهد ومقاتل: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما وقال الفراء: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم وكذلك من لناصر له يغلظ في أمره وهو نهى لجميع المكلفين.

{وأما السائل فلا تنهر} قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيرا فأما أن تطعمه وإما أن ترده ردا لينا قال الحسن: أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك ولكن طالب العلم وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره والتحقيق أن الآية تتناول النوعين، (وأما بنعمة ربك فحدث) قال مجاهد: القرآن، وقال مقاتل: اشكر على هذه النعم التي ذكرت في السورة، والتحقيق أن النعم تشمل هذا كله نعم الدين والدنيا⁽¹⁾ المناسبة بين القسم وموضوع السورة:

سورة الضحى في عمومها تتحدث عن نبينا محمد (ع) وعظيم محبة الله له ومن ثم عظيم عطاياه له (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فهي تعداد لنعم أعقبت حرمان ما قبل البعثة فناسب مجيء الآيات التي ارتبطت بحادثة سبب النزول وهي ظن المشركين بأن الله قلاه بأن كان الدفاع لم يقتصر فيه على نفي هذا الأمر بل قدره أعظم من ذلك بكثير - من خلال تعداد النعم الواردة في السورة- بل وتضمن مع ذلك عظيم فضله على الأمة كلها بإخراجهم من الظلمات إلى النور بدعوته مثل انبلاج نور الضحى بعد ظلمة الليل.

وبهذا التحم القسم بأجزائه مع موضوع السورة.

الهدايات والفوائد من القسم في سورة الضحى:

1- استعمال القسم في المواعظ المهمة للأمة فهو من أساليب التوكيد والتأثير.

(1) التبيان في أقسام القرآن - (ج 1 / ص 47).

2- الزمن والوقت من المرتكزات الأساسية في حياة الإنسان، فالزمن مستودع للأعمال التي سبى الإنسان عاقبتها يوم القيامة الكافر والمؤمن على حد سواء، ولذلك كثر القسم به في القرآن مثل هذه السورة، وربط بينه وبين العمل كما في سورة العصر: **(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (3)).**

وكما في سورة الليل: **(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))**

2- ضرورة اغتنام الوقت فيما ينفع وبناء منهج محاسبي مع النفس وفي الحديث «لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيْمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيْمَا عَلِمَ». وبمقدار عقل الإنسان، وإيمانه، يكون اهتمامه بالوقت، قال نبينا (ع): **(نِعْمَتَانِ مَعْبُودٌ فِيْمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاعُ)** فبمقدار ما يشعر المؤمن، باليوم الآخر، وتقوم في قلبه حقائق الإيمان، يشعر بأهمية الوقت، وإذا ضعف ذلك صار الوقت عنده أرخص ما يكون.

3- عظم مكانة النبي (ع) عند ربه، وقد جعل القاضي عياض في كتابه: (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) الباب الأول منه بعنوان: (في ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عظيم قدره لديه) وجعل أحد فصوله في دلالة القسم على هذا الموضوع فقال (الفصل الخامس: في قسمه تعالى جده له لتحقيق مكانته عنده) ثم افتتحه بهذه السورة لبيان عظيم دلالتها على ذلك فقال: **(تَضَمَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ وَتَنْوِيهِ بِهِ وَتَعْظِيمِهِ إِيَّاهُ سِتَّةَ وُجُوهِ: الْأَوَّلُ الْقَسْمُ لَهُ عَمَّا أَخْبَرَهُ بِهِ مِنْ حَالِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) أَي وَرَبِّ الضُّحَى وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ دَرَجَاتِ الْمَبْرَةِ، الثَّانِي بَيَانُ مَكَانَتِهِ عِنْدَهُ وَخُطُوبَتِهِ لَدَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) أَي مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ وَقِيلَ مَا أَمْلَكَ بَعْدَ أَنْ اصْطَفَاكَ، الثَّلَاثُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) قَالَ ابْنُ إِسْحَقَ أَي مَالِكَ فِي مَرْجِعِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاكَ مِنْ كَرَامَةِ الدُّنْيَا، وَقَالَ سَهْلٌ: أَي مَا ادَّخَرْتَ لَكَ مِنَ الشَّفَاعَةِ وَالْمَقَامِ الْمُحْمُودِ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا أَعْطَيْتَكَ فِي الدُّنْيَا، الرَّابِعُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) وَهَذِهِ آيَةٌ جَامِعَةٌ لِوُجُوهِ الْكَرَامَةِ وَأَنْوَاعِ السَّعَادَةِ وَشَتَاتِ الْإِنْعَامِ فِي الدَّارَيْنِ وَالزِّيَادَةِ، قَالَ ابْنُ إِسْحَقَ يُرْضِيهِ بِالْفُلْجِ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ وَقِيلَ يُعْطِيهِ الْحَوْضَ وَالشَّفَاعَةَ، وَرُويَ عَنْ بَعْضِ آلِ النَّبِيِّ (ع) أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ أَرْجَى مِنْهَا، وَلَا يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ (ع) أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ**

مِنْ أُمَّتِهِ النَّارَ، الْخَامِسُ مَا عَدَّ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ نِعْمِهِ وَقَرَّرَهُ مِنْ آلَانِهِ قَبْلَهُ فِي بَقِيَّةِ السُّورَةِ مِنْهُ هِدَايَتُهُ إِلَى مَا هَدَاهُ لَهُ أَوْ هِدَايَةَ النَّاسِ بِهِ عَلَى اخْتِلَافِ التَّفَاسِيرِ وَلَا مَالٌ لَهُ فَأَغْنَاهُ بِمَا آتَاهُ أَوْ بِمَا جَعَلَهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَالْغِنَى وَيَتِيمًا فَحَدَّبَ عَلَيْهِ عَمُّهُ وَأَوَاهُ إِلَيْهِ وَقِيلَ أَوَاهُ إِلَيَّ اللَّهُ وَقِيلَ يَتِيمًا لَا مِثَالَ لَكَ فَأَوَاكَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى أَلَمْ يَجِدْكَ فَهَدَى بِكَ ضَالًّا وَأَغْنَى بِكَ عَائِلًا وَأَوَى بِكَ يَتِيمًا؟ ذَكَرَهُ بِهَذِهِ الْمَنْنِ وَأَنَّهُ عَلَى الْمَعْلُومِ مِنَ التَّفْسِيرِ لَمْ يُهْمَلْهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ وَعَيْلَتِهِ وَيَتِيمِهِ وَقَبْلَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ وَلَا وَدَعَهُ وَلَا قَلَاهُ فَكَيْفَ بَعْدَ اخْتِصَاصِهِ وَاصْطِفَائِهِ؟ السَّادِسُ أَمْرُهُ بِإِظْهَارِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ وَشُكْرٍ مَا شَرَّفَهُ بِهِ بِنَشْرِهِ وَإِسَادَةِ ذِكْرِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) فَإِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ التَّحَدُّثُ بِهَا وَهَذَا خَاصٌّ لَهُ عَامٌّ لِأُمَّتِهِ (1).

والفَلَجُ: الظَّفَرُ بِمَا طَلَبَ. وَحَدَّبَ عَلَيْهِ: عَطَّفَهُ عَلَيْهِ.

(1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى - (1/35).

ثانياً: مثال تطبيقي لتدبر القسم على مستوى القرآن

القسم بالقرآن في القرآن

الحمد لله رب العالمين، أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وصلى الله على سيدنا محمد هادي البشرية، على مدى السنين والأزمان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وسلّم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فإن القرآن الكريم أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبلغهم مراد الله منهم قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (89) سورة النحل.

فكان تنزيله لهداية الناس إلى الطريق المستقيم، وأثنى الله على كتابه في كونه موصلاً لهذا الغرض مثل قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (9) الإسراء.
ولما كان أسلوب القسم من أعلى أساليب التأكيد وكان عظمة المقسم به سبيلاً للتوصل إلى تأكيد المقسم عليه كان مما ورد الإقسام به في القرآن هو القرآن ذاته وقد تكرر ذلك في مواضع متعددة وفي فواتح السور مما يجعله يكتسب أهمية أخرى.

ولذلك يهدف البحث إلى دراسة عظيم قدر القرآن من خلال أسلوب القسم في الآيات التي كان فيها القرآن مقسماً به ويجدر الذكر أن القرآن وقع أيضاً مقسماً عليه و وهذا لن تشمله هذه الدراسة المقسم عليه.

وسيكون منهج العرض ذكر مواضع القسم بدراسة موجزة لكل سورة استقلالاً من حيث ورود القسم فيها ومناسبتها لموضوع السورة، ثم عرض الفوائد المستنبطة من عموم المواضع التي ورد فيها. وقد كان القسم بالقرآن في خمس سور هي: (يس، ص، الزخرف، الدخان، ق) وقد قسمت البحث إلى ستة مباحث خمسة منها لكل سورة مبحثاً، والسادس للفوائد والهدايات العامة من كل السور.

المبحث الأول القسم في سورة يس

نزولها:

سورة يس: مكية، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ قُلْ أُوْحِي وَقَبْلَ سُورَةِ الْفُرْقَانِ فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ. (1)

موضوع سورة يس:

هذه السورة مكية فموضوعها جرى على عموم مواضيع السور المكية مما يناسب دعوة مشركي مكة وتأصيل أمور الاعتقاد وما يدعم هذا الموضوع، ويمكن القول بأن الموضوع يتركز في آيتين من السورة وهو قوله:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فُبَشِّرُهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11))

حيث تركز في السورة موضوع الدعوة والندارة لمشركي مكة وتثبيت النبي في الاستمرار في الدعوة من خلال قصة صاحب القرينين، وقد احتوت السورة على أكثر الموضوعات التي وقع فيها الإنكار والجدل في إمكانيتها وهو البعث.

ومناسبة القسم الذي هو مفتتح السورة للموضوع:

هو أن الجدل كل الجدل في تكذيبهم للنبي (ع) بتكذيبهم بأنه مرسل من عند الله، ولو آمنوا به لوقع التصديق بكل ما جاء به لذلك ناسب أن تفتتح السورة بتأكيد رسالته أنها من عند الله وهو جواب القسم (إنك لمن المرسلين)

ثم جاء المقسم به بما يشهد للمقسم عليه بالإثبات وهو القرآن الكريم فأقسم الله (Y) بالقرآن على رسالة محمد (ع) معللاً نزول القرآن وإرسال الرسول بحصول الندارة (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)، ومما ورد في السورة مؤكدا لهذا الموضوع: ما ورد في آية (11) التي كانت محور السورة في موضوعها.

تفسير آيات القسم:

قال تعالى: (يس) (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)

(يس)

السورة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة

(1) أخرجه ابن الضريس في: فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة (ص: 33).

وهذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منها على أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال:

القول الأول: أن لها معنًى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: مثل قول ابن عباس، (يس) قال: فإنه قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله وقال آخرون: معناه: يا رجل. ومثل قول مجاهد: (يس) مفتاح كلام افتتح الله به كلامه. وقول قتادة، (يس): كل هجاء في القرآن اسم من أسماء القرآن. (1) وعن ابن عباس: "يس" يا إنسان يريد محمداً (ع). وروى عكرمة عنه: "يس": يا إنسان بالحبشية. (2)

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى. وينظر فيها إلى الحكمة من مجيئها.

القول الثالث: لها معنًى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنًى؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى.

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: ألها معنًى، أم لا؛ وإذا كان لها معنًى فلا ندري ما هو.

وأصح الأقوال فيها - والله أعلم - القول الثاني؛ وهو أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروى عن مجاهد؛ وحجة هذا القول: أن القرآن نزل بلغة العرب؛ وهذه الحروف ليس لها معنًى في اللغة العربية، مثل ما تقول: أَلِف؛ باء؛ تاء؛ ثاء؛ جيم؛ حاء. . . ؛ فهي كذلك حروف هجائية.

هذا بالنسبة لذات هذه الحروف؛ أما بالنسبة للحكمة منها فعلى قول من يعين لها معنًى فإن الحكمة منها: الدلالة على ذلك المعنى. مثل غيرها مما في القرآن.

وأما على قول من يقول: "ليس لها معنًى"؛ أو: "لها معنًى الله أعلم به"؛ أو: "يجب علينا أن نتوقف" فإن الحكمة عند هؤلاء على أرجح الأقوال، وهو الذي اختاره ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره تلميذه الحافظ الذهبي، وأجمع كثير من أهل العلم: هو الإشارة إلى بيان إعجاز القرآن العظيم، وأن هذا القرآن لم يأت بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر؛ وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم. . . ؛ فالحكمة منها ظهور إعجاز القرآن الكريم في أبلغ ما يكون من العبارة؛ قالوا: ويدل على ذلك أنه ما من سورة افتتحت بهذه الحروف إلا وللقرآن فيها ذكر؛ ومنها هذه السورة (يس) حيث وقع

(1) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (20 / 490).

(2) الهداية الى بلوغ النهاية (9 / 5999).

القسم بالقرآن. ومع ذلك فإن أهل اللغة العربية عجزوا عن معارضته وهم البلغاء الفصحاء.(1)

وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ (2) قوله: {وَالْقُرْآنُ}: إِمَّا قِسْمٌ مُسْتَأْنَفٌ، إِنْ لَمْ يُجْعَلْ مَا تَقَدَّمَ قَسَمًا، وَإِمَّا عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ إِنْ كَانَ مُقْسَمًا بِهِ.(2)

والقرآن(3): الواو هنا حرف قسم. أقسم الله تعالى بالقرآن، لأن الله تعالى أن يقسم بما شاء، وإقسامه هنا بالقرآن إقسام بكلامه، وكلام الله تعالى من صفاته، وقد ذكر أهل العلم (رحمهم الله) أنه يجوز الإقسام بالله تعالى، أو بصفة من صفاته، وأما آياته فلا يُقسم بها إلا إذا قصد الإنسان بالآيات كلماته، كالقرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، وما أشبه ذلك، وأما الآيات الكونية كالشمس والقمر فلا يجوز لنا أن نقسم بها،(4)

(1) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (1/ 22).

(2) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (9/ 245).

(3) واختلف في أصل اشتقاقه: وقد لخص السيوطي آراء العلماء في ذلك (الإنتقان: 181/1) فقال: (اختلف فيه فقال جماعة: هُوَ اسْمٌ عَلِمَ غَيْرُ مُسْتَقٍ خَاصٌ بِكَلَامِ اللَّهِ فَهُوَ غَيْرُ مَهْمُوزٍ وَبِهِ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ وَالْحَطِيبُ وَغَيْرُهُمَا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَهْمِزُ قَرَأَتْ وَلَا يَهْمِزُ الْقُرْآنَ وَيَقُولُ: الْقُرْآنُ اسْمٌ وَلَيْسَ بِمَهْمُوزٍ وَلَمْ يُوخَذْ مِنْ قَرَأَتْ وَلَكِنَّهُ اسْمٌ لِكِتَابِ اللَّهِ مِثْلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ الْأَشْعَرِيُّ: هُوَ مُسْتَقٌّ مَنْ قَرَأَتْ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ إِذَا صَمَمَتْ أَحَدُهُمَا إِلَى الْأُخْرَى وَسُمِّيَ بِهِ لِقِرَانِ السُّورِ وَالْآيَاتِ وَالْحُرُوفِ فِيهِ.

وَقَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ مُسْتَقٌّ مِنَ الْقُرْآنِ لِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْهُ يُصَدَّقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَبِشَابِهِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَهِيَ قَرَائِنٌ وَعَلَى الْقَوْلَيْنِ هُوَ بِلَا هَمْزٍ أَيْضًا وَتَوْنُهُ أَصْلِيَّةٌ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: هَذَا الْقَوْلُ سَهْوٌ وَالصَّحِيحُ أَنْ تَرَكَ الهمزة فِيهِ مِنْ بَابِ التَّخْفِيفِ وَنَقَلَ حَرَكَةَ الهمزة إِلَى السَّاكِنِ قَبْلُهَا.

وَاختلفَ الْفَائِلُونَ بِأَنَّهُ مَهْمُوزٌ فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ اللَّحْيَانِيُّ هُوَ مُصَدَّرٌ لِقَرَأَتْ كَالرُّجْحَانِ وَالْعُفْرَانِ سُمِّيَ بِهِ الْكِتَابُ الْمَقْرُوءُ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْمَفْعُولِ بِالْمَصْدَرِ.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ الرَّجَّاجُ: هُوَ وَصَفٌ عَلَى فُعْلَانٍ مُسْتَقٌّ مِنَ الْقُرْءِ بِمَعْنَى الْجَمْعِ وَمِنْهُ قَرَأَتْ الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ أَيْ جَمَعْتُهُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ جَمَعَ السُّورَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ: لَا يُقَالُ لِكُلِّ جَمْعٍ قُرْآنٌ وَلَا لِمَجْمَعِ كُلِّ كَلَامٍ قُرْآنٌ قَالَ وَإِنَّمَا سُمِّيَ قُرْآنًا لِكَوْنِهِ جَمْعٌ تَمَرَاتِ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ الْمُنَزَّلَةِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ جَمَعَ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ كُلِّهَا. وَحَكَى فَطْرُبٌ قَوْلًا: إِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ قُرْآنًا لِأَنَّ الْفَارِيَّ يَظْهَرُهُ وَبَيَّنَّهُ مِنْ فِيهِ أَخْذًا مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: مَا قَرَأْتَ النَّاقَةَ سَلًا قَطُّ أَيْ

مَا رَمَتْ بَوْلِدًا أَيْ مَا أَسْقَطَتْ وَلَدًا أَيْ مَا حَمَلَتْ قَطُّ وَالْقُرْآنُ يَلْفِظُهُ الْقَارِئُ = مِنْ فِيهِ وَيُلْقِيهِ فَسُمِّيَ قُرْآنًا. قَالَ السِّيُوطِيُّ: وَالْمُخْتَارُ عِنْدِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ.

فالشافعي يرى أن القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت، كان كل ما قرئ قرآنًا، ولكنه اسم للقرآن، مثل التوراة والإنجيل. تاريخ بغداد(2/401).

(4) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد (ص: 72).

والقرآن: هو كتاب الله (Y) المنزل على خاتم أنبيائه محمد (ع) بلفظه ومعناه، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب في المصاحف من أول سورة «الفاتحة» إلى آخر سورة «الناس». (1)

(الحكيم)

حَكَمَ أصله: منع منعا لإصلاح، ومنه سميت اللجام: حَكَمَةَ الدابة، فقيل: حكمته وحَكَمْتُ الدابة: منعتها بالحكمة، وأَحَكَمْتُهَا: جعلت لها حكمة، وكذلك: حكمت السفينة وأحكمتها، والحَكْمَةُ: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات. (2)

ووصف القرآن بأنه حكيم ذكر النسفي أنه يجوز أن يكون ذا حكمة أو لأنه دليل ناطق بالحكمة أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به (3) ولما كان من معاني الحكمة: وضع كل شيء موضعه، فإن من مستتبعات وصف القرآن بأنه حكيم: وضع الأمر والنهي في الموضع اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلها اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة. ومن حكمة هذا القرآن، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها. (4)

وذكر السيوطي أن من أسماء القرآن الحكمة كما في قوله: [وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)] (القمر) فقال: وَأَمَّا الْحِكْمَةُ، فَلَأَنَّهُ نَزَلَ عَلَى الْقَائِنِ الْمُعْتَبِرِ مِنْ وَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَحَلِّهِ أَوْ لِأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْحِكْمَةِ. وَأَمَّا الْحَكِيمُ، فَلَأَنَّهُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ بِعَجِيبِ النَّظْمِ وَبَدِيعِ الْمَعَانِي وَأَحْكَمَتْ عَنِ تَطَرُّقِ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالِاخْتِلَافِ وَالتَّبَايُنِ. (5)

{إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} جوابٌ للقسم

والجملة لردِّ إنكار الكفرة بقولهم في حقه (ع) (لست مُرسلاً) وهذه الشهادة منه (Y) من جملة ما أُشير إليه بقوله تعالى في جوابهم (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً

(1) انظر: التعريفات (ص: 174)، المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: 8).

(2) المفردات في غريب القرآن (ص: 248).

(3) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (3/ 95).

(4) انظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 692).

(5) الإتيان في علوم القرآن (1/ 183).

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) من قوله: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)(الرعد)، ولذلك جاء تأكيدُ هَذَا الْخَبَرِ بِالْقَسَمِ وَحَرْفِ التَّكْيِيدِ وَلَا مِ الْإِبْتِدَاءِ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ مُرَادًا بِهِ التَّعْرِيفُ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالرَّسَالَةِ فَهُوَ تَأْيِيسٌ لِلنَّبِيِّ (ع) وَتَعْرِيفٌ بِالْمُشْرِكِينَ. (1)
وفي مجيء (من) هنا لبيان أنه من جملة المرسلين، فليس ببدع من الرسل، وأيضا جاء بما جاء به الرسل من أصول الشرائع.

قوله تعالى: { **على صراط مستقيم** } : خبرٌ آخرٌ لـ (إن) أخبر بأعظم أوصاف الرسول (ع)، الدالة على رسالته، وهو أنه { **على صراط مستقيم** } وعلى لإستيعلاء ويفيد التمكّن، ولَيْسَ الْغَرَضُ مِنَ الْإِخْبَارِ بِهِ عَنِ الْمُخَاطَبِ إِفَادَةُ كَوْنِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْلُومٌ حُصُولُهُ مِنَ الْأَخْبَارِ مِنْ كَوْنِهِ أَحَدَ الْمُرْسَلِينَ. ، وَلَكِنَّ الْغَرَضَ الْجَمْعُ بَيْنَ حَالِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبَيْنَ حَالِ دِينِهِ لِيَكُونَ الْعِلْمُ بِأَنَّ دِينَهُ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ عَلَمًا مُسْتَقْلَلًا لَا ضَمْنِيًّا. فأفاد بمجموع ذلك وصف شريعته (ع) بأنها أقوم الشرائع وأعدلها كما يُعرب عنه التَّنْكِيرُ النَّفْخِيْمِيُّ والوصفُ إثر بيان أنه (ع) من جملة المرسلين، وهذا الصراط موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم، مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة، المصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة، المزكية للنفس، المطهرة للقلب، المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول (ع)، ووصف دينه الذي جاء به(2).

{ **تنزيل العزيز الرحيم** } نصب على المدح، فهو مصدرٌ بمعنى المفعولِ عبَّرَ به عن القرآن بياناً لكمال عراقتِه في كونه منزلاً من عند الله (Y) إظهاراً لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة.

وَأُضِيفَ التَّنْزِيلُ إِلَى اللَّهِ بِعُنْوَانِ صِفَتِي الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِأَنَّ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ لَا يَعْذُو أَنْ يَكُونَ مِنْ آثَارِ عِزَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مَا فِيهِ مِنْ حَمَلِ النَّاسِ عَلَى الْحَقِّ وَسُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَى دُونَ مُصَانَعَةٍ وَلَا ضَعْفٍ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِنذَارِ وَالْوَعِيدِ عَلَى الْعَصِيَّانِ وَالْكَفْرَانِ. وإشعاراً بأن تنزيله ناشيء عن غاية الرحمة حسب ما ورد في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وَمِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَصَبِ الْأَدْلَةِ وَتَقْرِيبِ الْبُعِيدِ وَكَشْفِ الْحَقَائِقِ لِلنَّاطِرِينَ،

(1) انظر: تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (7/ 158)، و التحرير والتنوير (22/ 345).

(2) انظر: تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (7/ 158)، وتفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 692)، والتحرير والتنوير (22/ 347).

مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْبَشَارَةِ لِلَّذِينَ يَكُونُونَ عِنْدَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ هُوَ مَا وَرَدَ بَيَانُهُ بَعْدُ إِجْمَالًا مِنْ قَوْلِهِ: {لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} [يس: 6] ثُمَّ تَفْصِيلًا بِقَوْلِهِ: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرَهُمْ} [يس: 7] وَبِقَوْلِهِ: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} [يس: 11].⁽¹⁾

{لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال: {لَتُنذِرَ...} { وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة الله به على العرب خصوصا، وعلى غيرهم عموما. }⁽²⁾

ولعل ما ورد في هذه الآية من دلالات هي من مرتكزات السورة ومقاصدها وهو النذارة كما أشرنا سابقا.

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

لا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه، وهو رسالة الرسول محمد (ع)، من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم، لكفى به دليلا وشاهدا على رسالة محمد (ع)، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد (ع)، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام، على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضوع على صحة ما أقسم عليه، من رسالة رسوله.⁽³⁾

(1) انظر: تفسير أبي السعود (7/ 158)، والتحرير والتنوير (22/ 347).

(2) تفسير السعدي = تفسير الكريم الرحمن (ص: 692).

(3) تفسير السعدي = تفسير الكريم الرحمن (ص: 692).

المبحث الثاني

القسم في سورة (ص)

{ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)}

[ص: 1 - 3]

نزولها:

هذه السورة مكية بإجماع من المفسرين.⁽¹⁾
نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةَ وَقَبْلَ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، كما في قول لابن عباس.⁽²⁾

موضوع سورة ص:

يكثر في هذه السورة ذكر الخصومات ولعل هذا من أوجه المناسبة بين افتتاحها ب (ص) وموضوعها كما في قول ابن القيم حيث قال: (وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف فمن ذلك ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي (ع) أجعل الآلهة إلهاً واحداً إلى آخر كلامهم ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصم الملائكة في العلم وهو الدرجات والكفارات ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لأدم ثم خصامة ثانياً في شأن بني حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير (ص) وسورة (ق) غير حرفها وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف والله أعلم).⁽³⁾

مناسبة القسم لموضوع السورة:

أما عن مناسبة القسم بموضوع السورة فيقول ابن عاشور: (وَقَدْ جَاءَتْ فَاتِحَتُهَا مُنَاسِبَةً لِجَمِيعِ أَعْرَاضِهَا إِذِ ابْتَدَأَتْ بِالْقَسَمِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي كَذَّبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَجَاءَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ وَكُلُّ مَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ أَحْوَالِ الْمُكذِّبِينَ سَبَبُهُ اعْتِرَازُهُمْ وَشِقَاقُهُمْ، وَمِنْ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ سَبَبُهُ ضِدُّ

(1) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (4/ 491).

(2) أخرجه ابن الضريس في: فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة (ص: 33).

(3) بدائع الفوائد (3/ 174).

ذَلِكَ، مَعَ مَا فِي الْإِفْتِتَاحِ بِالْقَسَمِ مِنَ النَّشْوِيقِ إِلَى مَا بَعْدَهُ فَكَانَتْ فَاتِحَتُهَا مُسْتَكْمَلَةً
حَصَائِصَ حَسَنِ الْإِبْتِدَاءِ (1).

تفسير آيات القسم:

{ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)}

[ص: 1 - 3].

(ص): من الحروف المقطعة، وسبق ذكر مذاهب العلماء في الحروف المقطعة في تفسير سورة (يس).

ويضاف هنا أقوال العلماء فيمن يرى أن لها معنى غير ما ذكر سابقاً: ما ورد في قراءة أبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق: "صَادٍ"، بكسر الدال. قال أبو الفتح: المأثور عن الحسن أنه إنما كان يكسر الدال من "صاد" لأنه عنده أمر من المصاداة، أي: عارض عملك بالقرآن. (2) (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ): أَقْسَمَ بِالْقُرْآنِ تَنْبِيْهًا عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ، فَإِنَّ فِيهِ بَيَانَ كُلِّ شَيْءٍ، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَمُعْجِزَةً لِلنَّبِيِّ (ع).

(ذِي الذِّكْرِ): يَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ:

الأول: (ذِي الذِّكْرِ) ذِي الشَّرْفِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ وَأَبُو حُصَيْنٍ وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ {ذِي الذِّكْرِ} ذِي الشَّرْفِ أَي: ذِي الشَّانِ وَالْمَكَانَةِ. (3) وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ذِي الشَّرْفِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ (Y): (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) (الرُّحْزَفُ-44). (4) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ مَنْ آمَنَ بِهِ كَانَ شَرَفًا لَهُ فِي الدَّارَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: " لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ" [الأنبياء: 10] أَيُّ شَرَفُكُمْ. (5) وَهَذَا مَفْهُومُ قَوْلِ الضَّحَّاكِ حَيْثُ قَالَ ك (ذِي الذِّكْرِ) قَالَ: فِيهِ ذِكْرُكُمْ، قَالَ: وَنَظِيرَتُهَا: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ). (6) وَبِهَذَا يَكُونُ مَفْهُومُ هَذَا الْوَصْفِ مِنْ حَيْثُ دَلَّالَتُهُ عَلَى الشَّرْفِ أَمْرَيْنِ: - أَنْ الْقُرْآنَ شَرِيفٌ فِي ذَاتِهِ لِإِعْجَازِهِ وَاشْتِمَالِهِ عَلَى مَا لَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ.

(1) وهذا في رواية ابن عباس التي أخرجها ابن الضريس في فضائل القرآن (ص: 33) وانظر التحرير والتنوير (203 / 23).

(2) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (230 / 2) ورواية الحسن أخرجها الطبري (137 / 21).

(3) والروايات أخرجها الطبري (137 / 21)، وانظر تفسير ابن كثير ت سلامة (51 / 7)

(4) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (176 / 8) وانظر: تفسير البغوي - طيبة (67 / 7).

(5) تفسير القرطبي (143 / 15).

(6) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (140 / 21).

- وهو شرف لمن آمن به وعمل بمقتضاه.

القول الثاني: (ذي الذكر: ذي التذكير، ذَكَرَكُمْ اللهُ به.) وقيل: ذي ذكر الله

(Y).

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ الثَّانِي فَقَالَ: (وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ: ذِي التَّذْكِيرِ لَكُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ أَتْبَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ ذِكْرًا لِعِبَادِهِ ذَكَرَهُمْ بِهِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ).⁽¹⁾

وقال ابن كثير: (وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّهُ كِتَابٌ شَرِيفٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالْإِعْذَارِ وَالْإِنذَارِ)⁽²⁾. وَقِيلَ: " ذِي الذِّكْرِ " أَي فِيهِ ذِكْرٌ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ. وَقِيلَ: " ذِي الذِّكْرِ " أَي فِيهِ ذِكْرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَتَمَجِيدُهُ. وَقِيلَ: أَي ذِي الْمَوْعِظَةِ وَالذِّكْرِ).⁽³⁾

وَقَوْلُهُ: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} أَي: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لَذِكْرًا لِمَنْ يَتَذَكَّرُ، وَعِبْرَةً لِمَنْ يَتَعَبَّرُ. وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ الْكَافِرُونَ لِأَنَّهُمْ {فِي عِزَّةٍ} أَي: اسْتِكْبَارٍ عَنْهُ وَحَمِيَّةٍ {وَشِقَاقٍ} أَي: مُخَالَفَةٍ لَهُ وَمُعَانَدَةٍ وَمُفَارَقَةٍ. وَ(بَلِ) فِي قَوْلِهِ: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا} إِضْرَابٌ عَنِ ذَلِكَ كَأَنَّهُ قِيلَ لَا رَيْبَ فِيهِ قَطْعًا وَلَيْسَ إِذْاعَنَ الْكُفْرَةَ لَهُ لِشَائِبَةِ رَيْبٍ مَا فِيهِ بَلْ هُمْ فِي اسْتِكْبَارٍ وَحَمِيَّةٍ شَدِيدَةٍ وَشِقَاقٍ بَعِيدٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ وَلِذَلِكَ لَا يَذْعَنُونَ لَهُ⁽⁴⁾

وجواب القسم اختلف فيه على أقوال:

الأول: أن الجواب ظاهر ثم اختلفوا في تحديده على أقوال منها:

- (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ) قال قتادة: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ) هَا هُنَا

وقع القسم. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ⁽⁵⁾

- هُوَ قَوْلُهُ: {إِنَّ كُلَّ الْإِكْذَابِ الرَّسُلُ فَحَقَّ عِقَابُ} .

- قَوْلُهُ: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} وَحَكَى الثَّانِي وَالثَّلَاثُ ابْنُ جَرِيرٍ

وَقَالَ عَنِ الثَّلَاثِ: فِيهِ بُعْدٌ كَبِيرٌ.

- حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ قَالَ: جَوَابُهُ "ص" بِمَعْنَى: صِدْقٌ حَقٌّ

وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ.

الثاني: أن الجواب محذوف وحذفه أفخم له لأن النفس تذهب فيه كل مذهب

فمنهم من قال: جَوَابُهُ مَا تَضَمَّنَهُ سِبَاقُ السُّورَةِ بِكَمَالِهَا،

(1) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (140 / 21).

(2) تفسير ابن كثير ت سلامة (51 / 7).

(3) تفسير القرطبي (143 / 15).

(4) انظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (51 / 7)، و تفسير أبي السعود (213 / 7).

(5) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (140 / 21).

وقيل: تقدير الجواب المحذوف منه: لقد جاء الحق. وقيل: تقديره: ما الأمر كما قالوا.(1)

قال ابن القيم في مسألة متى يحذف جواب القسم: (. . . إذا كان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه فمن هذا قوله تعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه وللشرف والقدرة ما يدل على المقسم عليه وكونه حقاً من عند الله غير مفترى كما يقوله الكافرون وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم إن الجواب محذوف تقديره إن القرآن لحق وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك(2).

(1) انظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (5/ 76) و تفسير ابن كثير ت سلامة (7/ 51).

(2) التبيان في أقسام القرآن (ص: 10).

المبحث الثالث

القسم في سورة الزحرف

وهي مكية بإجماعهم، نزلت بعد سورة فصلت وقيل سورة الدخان. (1)
وهذه السورة من السور التي أطلق العلماء عليها (آل حم) أو الحواميم.
وعن ابن سيرين، أنه كان يكره أن يقول الحواميم، ويقول: آل حم. قال أبو
عبيد: آل حم كما تقول: هؤلاء آل فلان، كأنك أضفتهم إليه. (2)

وقد جاء فيها عن السلف ما يدل على فضلها
عن عبد الله قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمر
بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمنات، فقال:
عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب، فقيل له إن مثل الغيث الأول
مثل عظم القرآن وإن مثل هؤلاء الروضات الدمنات مثل آل حم في القرآن.
وعن ابن عباس قال: لكل شيء لباب وأبواب القرآن الحواميم.
قال عبد الله: «آل حم ديباج القرآن»
وقال ابن مسعود: إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمنات أتأنتق
فيهن. وقال سعد بن إبراهيم: كن آل حم يسمين العرائس. (3)

موضوع سور آل حم:

يبين الموضوع ما ورد عن مسروق حيث قال (أن آل حم، إنما نزلت بمكة،
وإنما كانت محاجة رسول الله (ع) قومه) (4)
ثم نلاحظ أن كل سورة تركز فيه جانباً من جوانب الدعوة بحيث يشكل
مقصداً فرعياً للمقصد الرئيسي من سور آل حم.

موضوع سورة الزحرف:

تتشارك سورة الزحرف في موضوعها مع سور آل حم من حيث الدعوة إلى
الله وتركز في الزحرف الحديث عن أثر زحرف الحياة في الصد عن اتباع

(1) فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة (ص: 33). زاد المسير في
علم التفسير (72 / 4).

(2) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: 256).

(3) الروايات أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: 255) و البغوي - إحياء التراث (4/
103).

(4) أخرجه الطبري = جامع البيان ت شاکر (22 / 103).

الرسول، ولذا نجد كثير من مصطلحات الزخرف في السورة وخاصة اسم السورة (الزخرف) ومن الآيات الدالة على هذا المقصد:

{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)} [الزخرف: 23]
 {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ} [الزخرف: 29]

ففي دعوة النبي (ع) يذكر تطلعاتهم لزخرف الحياة من النبي المرسل وأثره على صدهم عن قبول الدعوة: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهْمُ يَقْسَمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) {وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَّكِنُونَ (34) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)}

وفي قصة موسى مع فرعون يذكر الزخرف وأثره على الصد عن الاستجابة: {وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)}

وفي نعيم الجنة يذكر الزخرف فهو محله وليس الحياة الدنيا: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)}

وقد احتوت السورة على حوالي (20) كلمة من مصطلحات الزخرف مثل: الحلية- مترفوها- متعت- فضة- ذهب- زحرفا- ملك مصر- أسورة- مسرفين- صحاف من ذهب- الأزواج- البنين-بيوتهم- سررا- تشتتهيه الأنفس- تلذ الأعين- يخوضوا- يلعبوا)

مناسبة القسم لموضوع السورة:

لما كانت سور آل حم ومنها الزخرف مقصدها دعوة النبي (ع) وكان من معوقات استجابتهم له تعززهم بمكانتهم وإسرافهم بين في مطلع السورة شرفهم بتنزل القرآن عليهم لشرفه وعلوه بعد أن أقسم به على هذا الشرف فقال: (وَإِنَّهُ

فِي أَمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) ثم تلاه جملة من حجج القرآن في دعوتهم.

التفسير الموجز لآيات القسم:

(حم) * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ}.

حم: تقدم الحديث عن تفسير الحروف المقطعة في القرآن في تفسير (يس)

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ): هذا قسم بالقرآن، وسماه هنا (الكتاب)

وأصل الكتب في اللغة كما في قول الراغب: ضمّ أديم إلى أديم بالخياطة، يقال: كتبت السقاء، وكتبت البغلة: جمعت بين شفرئها بحلقة، وفي التعارف ضمّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة: النظم بالخطّ لكن يستعار كلّ واحد للآخر، ولهذا سمّي كلام الله- وإن لم يكتب- كتاباً كقوله: (ذَلِكَ الْكِتَابُ [البقرة]، وقوله: [قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ] [مريم/ 30]. والكتاب في الأصل مصدر، ثم سمّي المكتوب فيه كتاباً، والكتاب في الأصل اسم للصّحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله: [يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ] [النساء/ 153] فإنه يعني صحيفة فيها كتابة، ولهذا قال: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ [الأنعام/ 7]. (1)

وسمي القرآن بالكتاب كما في قول السيوطي: (لجمعه أنواع العلوم والقصاص

وَالْأَخْبَارِ عَلَى أْبْلَغِ وَجْهِ). (2)

وقال ابن عاشور: (وَإِطْلَاقُ اسْمِ الْكِتَابِ عَلَى الْقُرْآنِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ لِيُكْتَبَ وَأَنَّ الْأُمَّةَ مَأْمُورُونَ بِكِتَابَتِهِ وَإِنْ كَانَ نَزُولُهُ عَلَى الرَّسُولِ (ع) لَفَطًا غَيْرَ مَكْتُوبٍ. وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيُكْتَبُ فِي الْمَصَاحِفِ). (3)

(المبين): وصف القرآن بأنه (المبين) أي البين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة. قال السعدي: (فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم

(1) المفردات في غريب القرآن (ص: 699).

(2) الإتيان في علوم القرآن (1/ 178).

(3) التحرير والتنوير (160/ 25).

يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والأخرة.(1).

{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}: جواب القسم أو المقسم عليه {إِنَّا جَعَلْنَاهُ} أي: أنزلناه(2)

{قُرْآنًا} المَعْنَى: أَنَّهُ مَقْرُوءٌ دُونَ حُضُورِ كِتَابٍ فَيَقْتَضِي أَنَّهُ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا كَانَتْ فَائِدَةٌ لِلْإِخْبَارِ بِأَنَّهُ مَقْرُوءٌ لِأَنَّ كُلَّ كِتَابٍ صَالِحٍ لِأَن يُقْرَأَ. وَالْإِخْبَارُ عَنِ الْكِتَابِ بِأَنَّهُ قُرْآنٌ مُبَالَغَةٌ فِي كَوْنِ هَذَا الْكِتَابِ مَقْرُوءًا، أَيْ مُبَسَّرًا لِأَنَّهُ يُقْرَأُ لِقَوْلِهِ: {وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [الْقَمَر: 17] وَقَوْلِهِ: {إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [الْقِيَامَةِ: 17]. وَقَوْلِهِ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الْحَجَر: 9]. فَحَصَلَ بِهَذَا الْوَصْفِ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ (ع) جَامِعٌ لَوْصِفَيْنِ: كَوْنِهِ كِتَابًا، وَكَوْنِهِ مَقْرُوءًا عَلَى أَلْسِنَةِ الْأُمَّةِ. وَهَذَا مِمَّا اخْتَصَّ بِهِ كِتَابُ الْإِسْلَامِ.

{عربيا}: نسبة للعرب وَمَعْنَى جَعَلَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا تَحْوِينُهُ عَلَى مَا كُوْنَتْ عَلَيْهِ لُغَةُ الْعَرَبِ، وَأَنَّ اللَّهَ بَبَاهِرِ حِكْمَتِهِ جَعَلَ هَذَا الْكِتَابَ قُرْآنًا بَلُغَةَ الْعَرَبِ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ اللُّغَاتِ وَأَوْسَعُهَا دَلَالَةً عَلَى عَدِيدِ الْمَعَانِي، وَأَنْزَلَهُ بَيْنَ أَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ لِأَنَّهُمْ أَفْهَمُ لِدِقَائِقِهَا، وَلِذَلِكَ اصْطَفَى رَسُولُهُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ لِتَنْظَاهَرِ وَسَائِلِ الدَّلَالَةِ وَالْفَهْمِ فَيَكُونُوا الْمُبْلِغِينَ مُرَادَ اللَّهِ إِلَى الْأُمَّةِ.(3)

{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي: تفهمونه وتندبرونه، كما قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 195].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ} بَيَّنَّ شَرَفَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، لِيُشْرَفَهُ وَيُعْظِمَهُ وَيُطْبِعَهُ أَهْلَ الْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّهُ} أي: الْقُرْآنَ {فِي أُمِّ الْكِتَابِ} أي: اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، {الْدَيْنَا} أي: عِنْدَنَا، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، {لَعَلِيَّ} أي: ذُو مَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ وَشَرَفٍ وَفَضْلِ، قَالَهُ قَتَادَةُ {حَكِيمٌ} أي: مُحْكَمٌ بَرِيءٌ مِنَ اللَّبْسِ وَالرِّيْغِ.

وَهَذَا كُلُّهُ تَنْبِيهُ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا قَالَ: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الْوَاقِعَةِ: 77 - 80] وَقَالَ: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ

(1) انظر: تفسير الرازي (616/27)، تفسير أبي السعود (39/8)، تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 762).

(2) تفسير ابن كثير ت سلامة (7/218).

(3) التحرير والتنوير (160/25).

مُطَهَّرَةٌ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرَامٍ بَرَرَةٍ { عَيْسَ: 11 - 16] ؛ وَلِهَذَا اسْتَنْبَطَ الْعُلَمَاءُ، (للإمام)، مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ الْمُحَدِّثَ لَا يَمَسُّ الْمُصْحَفَ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنَّ صَحَّ؛ لِأَنَّ (4) الْمَلَائِكَةَ يُعْظِمُونَ الْمُصَاحِفَ الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى الْقُرْآنِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَأَهْلُ الْأَرْضِ بِذَلِكَ أَوْلَى وَأَحْرَى، لِأَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِمْ، وَخَطَابُهُ مُتَوَجَّهٌ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَحَقُّ أَنْ يُقَابَلُوهُ بِالْإِكْرَامِ وَالْتَعْظِيمِ، وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ بِالْقَبُولِ وَالْتَسْلِيمِ، لِقَوْلِهِ: {وَأِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} (1) (أَفَضْرِبْ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5):

أي أنهلمكم ونصرف عنكم الذكر لإسرافكم. وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتيج إلى التذكير. بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط. ولهذا بعث الأنبياء في زمان الفترة.(2).

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

المناسبة هنا ظاهرة حيث جَعَلَ الْمُقْسَمُ بِهِ هُوَ نَفْسَهُ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ، فلما أقسم بالقرآن بوصف كونه مبيئاً، جَعَلَ جَوَابَ الْقَسَمِ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ قَرَانًا عَرَبِيًّا، فففيه تنويه خاص بالقرآن، قال السمين: (وهذا عندهم من البلاغة: وهو كون القسَم والمقسم عليه من واحد)(3) قال ابن عاشور: (وهذا ضربٌ عزيزٌ بديعٌ لأنَّه يومىء إلى أنَّ المُقسَمَ عَلَى شَأْنِهِ بَلَغَ غَايَةَ الشَّرَفِ فَإِذَا أَرَادَ الْمُقْسِمُ أَنْ يُقسِمَ عَلَى ثُبُوتِ شَرَفِ لَهُ لَمْ يَجِدْ مَا هُوَ أَوْلَى بِالْقَسَمِ بِهِ لِلتَّنَاسُبِ بَيْنَ الْقَسَمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ).(4)

(1) تفسير ابن كثير ت سلامة (7/ 218).

(2) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (8/ 379).

(3) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (9/ 571).

(4) التحرير والتنوير (25/ 159).

المبحث الرابع

القسم في سورة الدخان

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
(3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5)
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ
الْأَوَّلِينَ (8)
نزولها:

مكية وهي تسع وخمسون آية، نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة
الجاثية. (1)

موضوع سورة الدخان:

تتشارك سورة الدخان في موضوعها مع سور آل حم في عموم دعوة النبي
(ع) ثم تركز في سورة الدخان جانب النذارة التي هي من مهام النبوة، وقد تبين
ذلك من جواب القسم في السورة في قوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ (3) وتخلل السورة صور متعددة لأنواع النذارة منها ماهو في الدنيا
ومنها ما هو في الآخرة ومن آيات السورة الدالة على معاني الإنذار و العذاب:
قوله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ (10)}
قوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)}
قوله تعالى: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ
وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (29)}
قوله تعالى: {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا
مُجْرِمِينَ (37)}
قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
(41)}

قوله تعالى: {دُخَانٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49)}

وركز على النذارة من عاقبة السلطة والتمكين فهي سبب للغفلة كما في قوله
(يلعبون) ونظيره ما حدث مع فرعون وعاقبة ملكه وسلطانه، وبالتالي هي نذارة
لكفار قريش لأن لهم التمكين بين قبائل العرب فكان مقصد السورة مناسب لحالة

(1) فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة (ص: 33)، تفسير البيهقي -
إحياء التراث (4/ 172)

النبي (ع) مع المشركين فإنهم خافوا أن يفقدوا ما هم فيه من السلطة والتمكين إن أسلموا وهذا أحد معوقات الدعوة إلى الله.

وعليه يتلخص مقصد السورة في: إنذار المشركين بالعذاب بسبب إعراضهم والتحذير من الاغترار بالسلطة والتمكين في الأرض، والتمثيل بالأقوام السابقة في عاقبة أمرهم لما أعرضوا بعد الإنذار.

مناسبة القسم بالقرآن لموضوع السورة:

الإنذار يبدأ في أول السورة بعد أن جاء القسم بالقرآن على القرآن في قوله تعالى (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)، ثم بعد ذكر جملة من الأقوام المنذرين يعود السياق في خاتمة السورة للتذكير بالقرآن الذي افتتحت السورة بالقسم به موصوفاً بالبيان: {فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)} فكان من بيانه تيسير تبليغه على لسان الرسول (ع) بهدف حصول الذكرى (للعلم يتذكرون) وبعدها يأتي الأمر للنبي (ع) بارتقاب ما وعده الله (Y) من النصر وما يحل بالمكذابين من عذاب كما قال تعالى: (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ).

التفسير الموجز لآيات القسم:

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

سبق التفسير بمثلها في سورة الزخرف.

لكن تميزت هذه السورة بأمر آخر وهو أن وصف مبين تكرر في السورة خمس مرات في قوله تعالى: (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) (بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)، (رَسُولٌ مُّبِينٌ)، (بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)، (بِلَاءٍ مُّبِينٍ). فكل ما جاء به الله تعالى من القرآن وهو طريق النجاة والفلاح والمعلم وهو الرسول الكريم والبرهان والآيات الواضحة والتهديد الحق لمن خالف إنما توجب الإيمان والتصديق فهي بيّنة لا غموض فيها لمن أبصرها ووعاها بعين البصيرة قبل عين البصر.

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3))

جملة جواب القسم

فقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ}: يجوز أن يكون جواب القسم، وأن يكون اعتراضاً، والجواب قوله: {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}، واختاره ابن عطية (1) والمعنى: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: إِنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَتَتَكَبَّرُ لَيْلَةٌ لِلتَّعْظِيمِ، وَوَصَفُوهَا بِـ (مُبَارَكَةٍ) تَنْوِيهٌ بِهَا وَتَشْوِيقٌ لِمَعْرِفَتِهَا. فَهَذِهِ اللَّيْلَةُ هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي ابْتَدَى فِيهَا نُزُولُ الْقُرْآنِ عَلَى مُحَمَّدٍ (ع) فِي الْعَارِ مِنْ جَبَلِ حِرَاءٍ فِي رَمَضَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}

(1) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (9/ 615).

[الْقَدْرُ: 1] وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، كَمَا قَالَ: تَعَالَى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: 185]،

ومعنى مباركة: كثيرة الخير والبركة قليلة القدر هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام لينذر به قوما عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الآخروي ولهذا قال: {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا} أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن {مُنذِرِينَ} أي: مُعَلِّمِينَ النَّاسَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ شَرْعًا، لِتَقْوَمَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ.

وَقَوْلُهُ: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} أي: فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ يُفْصَلُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى الْكُتُبِ أَمْرٌ سَنَّةٌ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْأَجَالِ وَالْأَرْزَاقِ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا إِلَى آخِرِهَا. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَقَوْلُهُ: {حَكِيمٍ} أي: مُحَكَّمٌ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُعَيَّرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا} أي: جَمِيعٌ مَا يَكُونُ وَيُقَدَّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا يُوجِبُهُ فَبِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ، {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} أي: إِلَى النَّاسِ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ كَانَتْ مَاسَّةً إِلَيْهِ، {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} أي: إِنْ إِرْسَالِ الرِّسْلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ الَّتِي أَفْضَلُهَا الْقُرْآنُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ بِالْعِبَادِ، فَمَا رَحِمَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِرَحْمَةٍ أَجَلَ مِنْ هِدَايَتِهِمْ بِالْكَتُبِ وَالرِّسْلِ، وَكُلُّ خَيْرٍ يَنَالُونَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَسَبَبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: الَّذِي أُنزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَا فِيهِمَا. (1)

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

سورة الدخان شبيهة بسورة الزخرف من حيث المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، فأقسم بالقرآن (الكتاب المبين) على القرآن ولكن المتعلق في جواب القسم وهو القرآن اختلف فقال في الزخرف: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال هنا في الدخان: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) (3) وسبق أن ذكر قول المفسرين أن هذا من أعلى درجات البلاغة وهو كون القسم والمقسم عليه من واحد.

(1) انظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (7/ 245). تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 771)، التحرير والتنوير (25/ 277).

المبحث الخامس القسم في سورة ق

نزولها:

سورة ق مَكِّيَّةٌ. نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ وَقَبْلَ سُورَةِ الْبَلَدِ، وَهِيَ خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً، فِي عِدِّ الْجَمِيعِ بِلَا خِلَافٍ فِي شَيْءٍ مِنْهَا. وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ أَوَّلُ الْجُزْبِ الْمُفْصَّلِ عَلَى الصَّحِيحِ،(1)

موضوع سورة ق ومناسبة افتتاح القسم بالقرآن لهذا الموضوع:

سورة ق افتتحت بالقسم بالقرآن موصوفاً بأنه مجيد فيه يكون المجد والرفعة والشرف وبه كثرة الخيرات لمن اتعظ به، ولذلك ناسب اختتامها بمثل ما ابتدأت به (. . . فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) وما بين ذلك تضمن قضايا الدين الكبرى التي ينبغي التذكير بها في القرآن ولذلك تناولت إثبات النبوة وإثبات البعث، والأقوام السابقة التي كذبت رسلها للاتعاض بأحوالهم وذكر الجنة والنار والحساب، وقد تكرر كلمة الذكرى بمشتقاتها ثلاث مرات منها: (تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) 8، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (37)، (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ).

وعليه يتلخص موضوع السورة: بأنه التذكير بالقرآن حال كونه وسيع المعاني شريف القدر عظيم المنزلة.

وفي قوله: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (37) يمكن بناء منهجية التذكير بالقرآن وهو كلما كان القلب صحيحاً في نور من الله فإن التذكرة تحصل مباشرة، وكلما نقص هذا النور فعلى صاحبه إلقاء السمع لمواعظه مع حضور القلب فإنه مظنة الارتقاء إلى صفاء القلب الذي تكتمل معه التذكرة. (2)

(1) انظر: فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة (ص: 33)، فنون الألفان في عيون علوم القرآن (ص: 309)، تفسير ابن كثير ت سلامة (7/ 392) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (1/ 437).

(2) قال ابن القيم في كتابه: الفوائد (ص: 3) (قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ إِذَا أَرَدْتَ الْإِنْتِقَاعَ بِالْقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ: وَأَلْقِ سَمْعَكَ وَاحْضِرْ حُضُورَ مَنْ يَخَاطَبُهُ بِهِ مِنْ تَكَلُّمٍ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ فَانْهَ خَاطِبَ مِنْهُ لَكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} وَذَلِكَ أَنْ تَمَامَ التَّأثيرِ لَمَّا كَانَ مَوْفُوفًا عَلَى مُؤثرٍ مُقْتَضٍ وَمحلٍ قَابِلٍ وَشَرطٍ لِحُصُولِ الأثرِ وَانْتِفَاءِ المَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ تَضَمَّنَتِ الأيَةُ بَيَانًا ذَلِكَ كَلْمَهُ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْيَنِهِ وَأَدَلَّهُ عَلَى المُرَادِ فَقَوْلُهُ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَقَدَّمَ

ولعل ذلك من أسرار فاتحة المفصل بهذه السورة، قال أبو الحسن الحرالي: (في سر افتتاح المفصل بهذا الحرف فقال في آخر كتابه في هذا الحرف: اعلم أن القرآن منزل مثنائي، ضمن ما عدا المفصل منه الذي هو من قاف إلى آخر الكتاب العزيز وفاتحة ما يختص بأولي العلم والفقهاء من مبسوطات الحكم ومحكمات الأحكام ومطولات الأقصيص، ومثابه الآيات، والسورة المفتحة بالحروف الكلية للإحاطة لغيبية المتهجى المسندة إلى آحاد الأعداد، فلعلو رتبة إبراده وطوله ثنى الحق سبحانه الخطاب وانتظمه في سور كثيرة العدد يسيرة عدد الآي قصيرة مقدارها، ذكر فيها من أطراف القصص والمواعظ والأحكام والثناء وأمر الجزاء ما يليق بسماع العامة ليسهل عليهم سماعه وليأخذوا بحظ مما أخذه الخاصة وليكرر على أسماعهم في قراءة الأئمة له في الصلوات المفروضة التي

من أول السورة إلى ههنا وهذا هو المؤثر وقوله {لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} فَهَذَا هُوَ الْمَحَلُّ الْقَابِلُ وَالْمَرَادُ بِهِ الْقَلْبُ الْحَيُّ الَّذِي يَعْقِلُ عَنِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا} أَي حَيِّ الْقَلْبِ وَقَوْلُهُ {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} أَي وَجَّهَ سَمْعَهُ وَأَصْغَى حَاسَةً سَمِعَهُ إِلَى مَا يُقَالُ لَهُ وَهَذَا شَرْطُ النَّائِثِ بِالْكَلامِ وَقَوْلُهُ {وَهُوَ شَهِيدٌ} أَي شَاهِدُ الْقَلْبِ خَاضِرٌ غَيْرُ غَائِبٍ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ اسْتَمَعَ كِتَابَ اللَّهِ وَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ وَالْفَهْمُ لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا سَاهٍ وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَنَاعِ مِنْ حُصُولِ التَّأثيرِ وَهُوَ سَهْوُ الْقَلْبِ وَغَيْبَتُهُ عَنِ تَعَقُّلِ مَا يُقَالُ لَهُ وَالنَّظَرُ فِيهِ وَتَأْمَلُهُ فَإِذَا حَصَلَ الْمُؤثرُ وَهُوَ الْقُرْآنُ وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ وَوَجَدَ الشَّرْطَ وَهُوَ الإِصْغَاءُ وَانْتَفَى الْمَنَاعُ وَهُوَ اسْتِغْالُ الْقَلْبِ وَذَهولُهُ عَنِ مَعْنَى الْخِطَابِ وَانصِرافُهُ عَنْهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ حَصَلَ الأثرُ وَهُوَ الإِنتِفَاعُ وَالتَّذَكُّرُ فَإِنْ قِيلَ إِذَا كَانَ التَّأثيرُ إِيمَانًا يَتِمُّ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ فَمَا وَجَّهَ دُخُولَ أَدَاةٍ أَوْ فِي قَوْلِهِ {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} وَالْمَوْضِعُ مَوْضِعٌ وَآوُ = أَجْمَعٌ لَا مَوْضِعٌ أَوْ الَّتِي هِيَ لِأَحَدِ الشَّيْئَيْنِ قِيلَ هَذَا سؤَالٌ جَيِّدٌ وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنْ يُقَالُ خَرَجَ الْكَلَامُ بِأَوْ بِاعْتِبَارِ حَالِ الْمُخَاطَبِ الْمَدْعُوِّ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ حَيًّا الْقَلْبُ وَاعِيَهُ تَامًّا الْفَطْرَةَ فَإِذَا فَكَّرَ بِقَلْبِهِ وَجَالَ بِفِكرِهِ دَلَّهَ قَلْبُهُ وَعَقْلُهُ عَلَى صِحَّةِ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَشَهِدَ قَلْبُهُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ فَكَانَ يُرُودُ الْقُرْآنُ عَلَى قَلْبِهِ نُورًا عَلَى نُورِ الْفَطْرَةِ وَهَذَا وَصَفَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ} وَقَالَ فِي حَقِّهِمْ اللَّهُ نُورَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مُصْبِحٌ مُصْبِحٌ فِي رُجَاةٍ الرُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ رَبُّوْنَ لَا شَرَفٌ لَهَا وَلَا غَرْبٌ يَكَادُ رَبُّهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ فَهَذَا نُورُ الْفَطْرَةِ عَلَى نُورِ الْوَحْيِ وَهَذَا حَالُ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِيِ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ مِنَ الأَسْرَارِ وَالْعَبَرِ فِي كِتَابِ اجْتِمَاعِ الْجِيوشِ الإِسْلامِيَةِ عَلَى غَرْوِ الْمُعْطَلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فَصَاحِبُ الْقَلْبِ يَجْمَعُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ مَعَانِي الْقُرْآنِ فَيَجِدُهَا كَأَنَّهَا قَدْ كَتَبَتْ فِيهِ فَهُوَ يَفْرَأُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَكُونُ تَامًّا الإِسْتِعْدَادِ وَاعِيِ الْقَلْبِ كَامِلِ الْحَيَاةِ فَيَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ يَمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَلَمْ تَبْلُغْ حَيَاةَ قَلْبِهِ وَنُورَهُ وَزَكَاءَ فِطْرَتِهِ مَبْلُغَ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِيِ فَطَرِيقُ حُصُولِ هِدَايَتِهِ أَنْ يَفْرَغَ سَمْعَهُ لِلْكَلامِ وَقَلْبَهُ لِتَأْمَلِهِ وَالتَّفْكيرِ فِيهِ وَتَعَقُّلِ مَعَانِيهِ.

لا مندوحة لهم عنها ما يكون لهم خلفاً مما يعولهم من مضمون سائر السور المطولات، فكان أحق ما افتتح به مفصلهم. (1)
ولعل هذا أيضاً مناسبة اختيار الرسول (ع) لهذه السورة فيقرأ بها في الفجر وفي العيد وفي الجمعة (2) لتطرق الأذان وتحصل الذكرى.

التفسير العام للقسم في السورة:

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)

ق: سبق بيان مذاهب العلماء في الحروف المقطعة في سورة يس. (3)

وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

المجيد من المجد، قال الخليل: (المجد: نيل الشرف)، وقال ابن فارس: (الميم وَالْحِيمُ وَالذَّالُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى بُلُوغِ النَّهَائِيَةِ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي مَحْمُودٍ. مِنْهُ الْمَجْدُ: بُلُوغُ النَّهَائِيَةِ فِي الْكُرْمِ. وَ قَالَ الرَّاعِبُ (السَّعَةِ فِي الْكُرْمِ وَالْجَلالِ.

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (18 / 398).

(2) في صحيح مسلم (1 / 337) جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ (ع) كَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ بِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) وفي صحيح مسلم أيضاً (2 / 607) أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ (ع) فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَالَ: «كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ» وفي الترمذي ت بشار (1 / 667) عَنِ النَّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ (ع) يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ: ب {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}، وَ {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ}، وَرَبِّمَا اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَيَقْرَأُ بِهِمَا.

(3) ويضاف هنا عند من قال أن هذه الحروف لها معنى ما قاله الزجاج في (معاني القرآن وإعراجه (5 / 41) وغيره من اللغويين: (ويجوز أن يكون معنى (قاف) معنى قضي الأمر، كما قيل (حم) حَمُّ الأَمْرِ. واحتج الذين قالوا من أهل اللغة أن معنى (ق) بمعنى قضي الأمر بقول الشاعر:

قلنا لها قفي قالت قاف. . لا تحسبي أنا نسينا الإيجاب.

= معناه فقالت أفف). وقال ابن كثير: تفسير ابن كثير (7 / 395) (وفي هذا التفسير نظراً؛ لأنَّ الحذفت في الكلام إنما يكون إذا دلَّ دليلٌ عليه، ومن أين يُفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟).

ومما قيل في معنى (ق) ما أورده الثعلبي في: الكشف والبيان عن تفسير القرآن (9 / 92) وغيره من المفسرين: (وقال عكرمة، والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء، خضرة السماء منه، وعليه كتفا السماء، وما أصاب الناس من زمرد، فهو ما يسقط من الجبل، وهي رواية أبي الحوراء عن ابن عباس) وهذا القول أورده كثير من المفسرين، لكن نجد ابن كثير يضعفه ويعيب على من يرويه فقال

وَكَأَنَّ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ خُرَافَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَخَذَهَا عَنْهُمْ بَعْضُ النَّاسِ، لَمَّا رَأَى مِنْ جَوَارِ الرِّوَايَةِ عَنْهُمْ فِيمَا لَا يُصَدَّقُ وَلَا يُكَدَّبُ.....). تفسير ابن كثير ت سلامة (7 / 394).

يقال: مَجْدٌ يَمْجُدُ مَجْدًا وَمَجَادَةٌ، وأصل المجد من قولهم: مَجَدَتِ الْإِبِلُ: إِذَا حَصَلَتْ فِي مَرَعَى كَثِيرٍ وَاسِعٍ(1).

والمجد من أوصاف القرآن له مساران في المعنى كلها من أوصاف القرآن. **الأول:** من المجد بمعنى الشرف ورفعة القدر، قال سعيد بن جبير (ق) **وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ** قال: الكريم.(2) قال ابن كثير: (فهو الكَرِيمُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

والثاني: الكثير، قال القرطبي: (وَقِيلَ: الْكَثِيرُ، مَاخُودٌ مِنْ كَثْرَةِ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ لَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: كَثِيرٌ فُلَانٌ فِي النَّفُوسِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ فِي الْمَثَلِ السَّائِرِ: (فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَقَارُ). أَي اسْتَكْتَرَ هَذَانِ النَّوعَانِ مِنَ النَّارِ فزادا على سائر الشجر، قال ابنُ بَحْرٍ(3).

وتحصل من ذلك في وصف القرآن أنه وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. ففي المجد: سعة الأوصاف وعظمتها، به يمدح ويعلو ويظهر من تمسك به، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه، و سرعة الانقياد له، وشكر الله على المنة به، فوصفه بذلك لكثرة ما يتضمّن من المكارم الدنيوية والأخروية، وعلى هذا وصفه بالكريم بقوله: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ [الواقعة/ 77]، وعلى نحوه: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) (4).

قوله: (بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ

(2)

أي: لم يكذبك قريش يا محمد لأنهم لا يعرفونك بل لتعجبهم وإنكارهم من بشر مثلهم ينذرهم بأمر الله (Y). {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}. قال بعض أهل المعاني: العجب وقع من المؤمنين والكافرين فقول بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم. ثم ميز الله الكافرين من المؤمنين فقال تعالى: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَعْدَاؤُنَا} الآية فوصفهم بإنكار البعث، ولم يقل: بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقالوا هذا شيء عجب. ثم بيّن قول الكافرين من جميع من تعجب من إرسال منذر، فأمن المؤمنون مما تعجبوا منه، وكفر الكافرون به. ثم

(1) العين (6/ 89)، مقاييس اللغة (5/ 297)، المفردات في غريب القرآن (ص: 760).

(2) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (22/ 326).

(3) تفسير القرطبي (17/ 3).

(4) تفسير السعدي = تفسير الكريم الرحمن (ص: 803)، تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد

(ص: 72).

قال تعالى حكاية عن قولهم أنهم قالوا: {أَعْدَا مِتْنَا}، وإنما جواب منهم لإعلام النبي (ع) لهم، أنهم يبعثون، فأنكروا ذلك فقالوا: {أَعْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تَرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} أي: أُنْبِعْتُ إِذَا كُنَّا فِي قُبُورِنَا تَرَاباً؟ وقوله: {أَعْدَا مِتْنَا}: إنما هو جواب منهم لإعلام النبي (ع) لهم أنهم يبعثون ويجازون بأعمالهم.

ودل على ذلك قوله: {أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} لأن المنذر أعلمهم أنهم يبعثون فأنكروا ذلك، فقالوا: أُنْذِرْنَا وَكُنَّا تَرَاباً، واكتفى بدلالة الكلام على حكاية ما قال لهم المنذر وهو النبي (ع). وقيل: إنما أتى هذا الإنكار ولم يتقدم قبله شيء للجواب المضمّر المحذوف، والتقدير: والقرآن المجيد لتبعثن، ففهموا ذلك فقالوا جزاباً: أُنْبِعْتُ إِذَا كُنَّا تَرَاباً، إنكاراً للبعث. (1)

جواب القسم:

القسم في هذه السورة من القسم الذي حذف جوابه - في قول كثير من المفسرين- فهذه السورة شبيهة بسورة ص في القسم. قال ابن القيم: (وهنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه وأنه حق من عنده ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به لما في القسم من الدلالة عليه أو لأن المقصود نفس المقسم به) (2) وقال ابن كثير: (بَلِ الْجَوَابِ هُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقَسْمِ، وَهُوَ إِبْتِثَاتُ النَّبِيِّ، وَإِبْتِثَاتُ الْمَعَادِ، وَتَقْرِيرُهُ وَتَحْقِيقُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْقَسْمُ مُتَلَقًى لَفُظًا، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} (3))

ومن المفسرين من رأى أن الجواب محذوف ولكن قدر الجواب من مضمون محدد في السورة فقال الفراء: محذوف دل عليه قوله (أإذا متنا) أي لتبعثن، وهو قول المبرد والزجاج وحسن هذا القول ابن عطية. (4)

ومن المفسرين من رأى أن الجواب مذكور ثم تنوعت أقوالهم في تحديده: فقيل: الجواب: قوله: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)، قاله الأخفش (5)، وضعفه النحاس فقال: (فأما أن يكون الجواب قد علمنا خطأ لأن «قد» ليست من

(1) الهداية الى بلوغ النهاية (11 / 7027).

(2) التبيان في أقسام القرآن (ص: 425) وانظر: تأويل مشكل القرآن (ص: 142) حيث قال ابن قتيبة: (ومن الاختصار: القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل على الجواب).

(3) تفسير ابن كثير ت سلامة (7 / 395).

(4) معاني القرآن للفراء (3 / 75) وانظر: تفسير ابن عطية (5 / 155).

(5) معاني القرآن للأخفش (2 / 522).

جواب الأقسام)،(1) و أجاز هذا القول الزجاج فيكون المعنى: (ق) والقرآن المجيد) لقد عَلِمْنَا، فحذفت اللام لأن ما قبلها عَوْضٌ منها، كقوله: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. .. قَدْ أَفْلَحَ) أي: لقد أفلح،(2)

وقيل: أنه قوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ}، وابن كيسان. وقيل: أنه قوله: {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلِ} وقيل: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ}. وقيل: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى}. وقيل: {بَلْ عَجَبُوا} قال السمين الحلبي: وهو قولٌ كوفيٌّ. قالوا: لأنه بمعنى «قد عجبوا»(3).

(1) إعراب القرآن للنحاس (4/ 146).

(2) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (5/ 42).

(3) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (10/ 17) وانظر: زاد المسير في علم التفسير

(4/ 157)، تفسير القرطبي (17/ 3).

المبحث السادس

الفوائد والهدايات الجامعة بين السور الخمس المفتوحة بالقسم بالقرآن

1- جميع السور مكية، وهذا منسجم مع الغرض فتعظيم شأن القرآن يناسب أن يكون في مكة حيث وقع التكذيب به في مكة فقالوا عنه أساطير الأولين وقد ذكر القرآن ذلك في تسع مواضع منها: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**) (24) النحل. ومثل اتهامهم له بالشعر والكهانة في قوله: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ **(41)** وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ **(42)** تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ **(43)** الحاقة).

2- جميع السور افتتحت بالأحرف المقطعة. وهذا أيضا منسجم مع الغرض من كون الحكمة من مجيء هذه الأحرف إثبات إعجاز القرآن حيث تحداهم أن يأتوا بمثله مع كونه لم يأت بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر، أو نطاق لغتهم؛ وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم.

3- وجميعها اشتركت بالإشادة بالقرآن وهم أمر اشتركت فيه مع غالب السور المفتوحة بالحروف المقطعة، لكنها تميزت بأن الإشادة بالقرآن كانت بأسلوب القسم الذي هو أعلى المؤكدات.

4- من الخمس سور ذكر القرآن باسمه العلم عليه وهو القرآن، واثنين ذكر باسم الكتاب، فاكتسب بمجموعها أن القرآن مجموع في الصدور ومجموع في السطور كما سبق بيانه، وهذا من تمام حفظه، وتيسيره.

5- جاء ذكر القرآن في جميع القرآن موصوفا، ومن هذه الأوصاف تتبين عظمتها وهذه الصفات:

- **الْحَكِيمُ، لِأَنَّهُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ بِعَجِيبِ النَّظْمِ وَبَدِيعِ الْمَعَانِي وَأُحْكِمَتْ عَنْ تَطَرُّقِ النَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالِاخْتِلَافِ وَالتَّبَايُنِ، فَأَحْكَامُهُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْجَزَائِيَّةُ كُلُّهَا** مشتملة على غاية الحكمة. ومن حكمة هذا القرآن، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقترضية لترتيب الحكم عليها.

- وهو (ذي الذكر): فهو ذو الشرف والشأن والمكانة. فهو شريف في نفسه لإعجازه وأسنماليه على ما لا يشتمل عليه غيره. وهو شرف لمن انتسب إليه وأمن به وعمل بما جاء فيه.

وهو (ذِي الذِّكْرِ) لَأَن فِيهِ ذِكْرٌ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ. وَالْمَوْعِظَةُ والتذكير.

- وهو المبين فلأنه بين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة.

- وهو المجيد فلأن له الشرف ورفعة القدر، وهو الكَرِيمُ الْعَظِيمُ. وهو الكثير، مِنْ كَثْرَةِ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ وَكثرة المعاني العظيمة، كثير الوجوه كثير البركات. حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهو مجيد به يمجد ويعلو ويظهر من تمسك به، وهذا موجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له.

6- تميزت سور آل حم من الخمس سور: الزخرف والدخان بأن المقسم به والمقسم عليه هو القرآن {حم (1) وَالكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)} [الزخرف: 1 - 4] ، و {حم (1) وَالكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)} [الدخان: 1 - 3]

فاجتمع فيه سبل التأكيد على عظمة القرآن. فزاد بذلك أوصاف القرآن من خلال جواب القسم حيث أقسم الله بالقرآن على القرآن بوصفه عربي لأنها أشرف اللغات وأوسعها دلالة على عديد المعاني، وأنزله بين أهل تلك اللغة لأنهم أفهم لدقائقها، ولذلك اصطفى رسوله من أهل تلك اللغة لتتطاهر وسائل الدلالة والفهم فيكونوا المبلغين مراد الله إلى الأمم.

كما أقسم بالقرآن على القرآن باعتبار وقت نزوله في ليلة مباركة ووصفها بـ (مباركة) تنويه بها وتشويق لمعرفة معناها. فهذه الليلة هي الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على محمد صلى الله عليه في رمضان كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ومعنى مباركة: كثيرة الخير والبركة فليلة القدر هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام.

7- بمجموع هذه الصفات تتبين أهمية تدبر القرآن فبالقدرة تتبين حكمته والذكرى الحاصلة به خصوصا إذا استحضرنا تيسيره وإبانته لطريق الهداية لمن أقبل عليه، كما أن بمجموع هذه الصفات تتبين أهمية التمسك به فبه يشرف، وبه يذكر ويعلو قدره.

8- اجتمع في سورة يس الإشادة بالقرآن وكذلك الإشادة بمبلغه وهو الرسول (ع) فقال تعالى: (يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) فكان هذا من تمام إثبات القرآن بصدق مبلغه.

قائمة المصادر والمراجع

1. الإتقان في علوم القرآن - المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي (المتوفى: 911هـ) - المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم - الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة: 1394هـ / 1974 م.
2. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ) - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
3. أسرار البلاغة - المؤلف: أبو بكر عبد القاهر، الجرجاني الدار (المتوفى: 471هـ) - قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر - الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
4. أسرار العربية - المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: 577هـ) - الناشر: دار الأرقم بن أبي الأرقم - الطبعة: الأولى 1420هـ - 1999 م
5. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ) - الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان - عام النشر: 1415 هـ - 1995 م.
6. إعراب القرآن - المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ) - وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم - الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة: الأولى، 1421 هـ.
7. إمعان في أقسام القرآن - عبد الحميد الفراهي - دار القلم - دمشق - الدار الشامية - بيروت - الطبعة الأولى - 1415 هـ.
8. البرهان في علوم القرآن - المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) - المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.
9. البلاغة العربية المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَّكَّة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ) الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت - الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996 م.

10. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز- المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ)-المحقق: محمد علي النجار- الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
11. تأويل مشكل القرآن-المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)-المحقق: إبراهيم شمس الدين-الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
12. التبيان في أقسام القرآن-المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)-المحقق: محمد حامد الفقي- الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.
13. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»-المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)- الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس- سنة النشر: 1984 هـ.
14. التعريفات- المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)-المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر- الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان- الطبعة: الأولى 1403هـ-1983م.
15. تفسير القرآن العظيم- المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)-المحقق: سامي بن محمد سلامة- الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.
16. تفسير الحجرات - الحديد- المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ)-الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض-الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م.
17. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان-المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ) - المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق-الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى 1420هـ-2000 م.
18. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي-المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)- تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش-الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة-الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م.

19. جامع البيان في تأويل القرآن-المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)- المحقق: أحمد محمد شاكر-الناشر: مؤسسة الرسالة-الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
20. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون-المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ)- المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط- الناشر: دار القلم، دمشق.
21. دراسات في علوم القرآن-المؤلف: محمد بكر إسماعيل (المتوفى: 1426هـ)- الناشر: دار المنار- الطبعة: الثانية 1419هـ-1999م.
22. زاد المسير في علم التفسير- المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)- المحقق: عبد الرزاق المهدي- الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت-الطبعة: الأولى- 1422 هـ.
23. الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء. المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ)-الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمني (المتوفى: 873هـ)- الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- عام النشر: 1409 هـ - 1988 م.
24. صحيح البخاري-الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ع) وسننه وأيامه = المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي- المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر-الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)-الطبعة: الأولى، 1422هـ.
25. صحيح مسلم -المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ع)-المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)-المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي- الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
26. غريب القرآن-المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)- المحقق: أحمد صقر-الناشر: دار الكتب العلمية (لعلها مصورة عن الطبعة المصرية)- السنة: 1398 هـ - 1978 م.
27. فضائل القرآن للقاسم بن سلام-المؤلف: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 224هـ)-تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابية، ووفاء تقي الدين-الناشر: دار ابن كثير (دمشق - بيروت)- الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1995 م.

28. فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة-المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس بن يسار الضريس البجلي الرازي (المتوفى: 294هـ)- تحقيق: غزوة بدير- الناشر: دار الفكر، دمشق - سورية-الطبعة: الأولى، 1408 هـ.
29. فنون الأفتان في عيون علوم القرآن-المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) - (المتوفى 597 هـ)- دار النشر: دار البشائر - بيروت - لبنان-الطبعة: الأولى - 1408 هـ - 1987 م.
30. فهم القرآن ومعانيه-المؤلف: الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: 243هـ)-المحقق: حسين القوتلي-الناشر: دار الكندي، دار الفكر - بيروت-الطبعة: الثانية، 1398.
31. الفوائد-المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)-الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت-الطبعة: الثانية، 1393 هـ - 1973 م.
32. (قيمة الزمن في القرآن الكريم) بحث منشور في العدد الرابع والسبعون - مجلة البحوث الإسلامية - ذو القعدة إلى صفر لسنة 1425هـ - 1426هـ.
33. كتاب العين-المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)-المحقق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي- الناشر: دار ومكتبة الهلال.
34. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل-المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)-الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت-الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.
35. الكشف والبيان عن تفسير القرآن-المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ)-تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور-مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي-الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان-الطبعة: الأولى 1422، هـ - 2002 م
36. مجاز القرآن- المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: 209هـ)-المحقق: محمد فواد سزكين-الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة- الطبعة: 1381 هـ.
37. المدخل لدراسة القرآن الكريم-المؤلف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: 1403هـ)-الناشر: مكتبة السنة - القاهرة-الطبعة: الثانية، 1423 هـ - 2003 م.

38. محاسن التأويل-المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق الفاسمي (المتوفى: 1332هـ)- المحقق: محمد باسل عيون السود-الناشر: دار الكتب العلميہ- بيروت-الطبعة: الأولى- 1418 هـ.
39. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها-المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: 392هـ)-الناشر: وزارة الأوقاف- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-الطبعة: 1420هـ- 1999م.
40. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)-المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد-الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت-الطبعة: الأولى - 1422 هـ.
41. المخصص-المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: 458هـ)-المحقق: خليل إبراهيم جفال-الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت-الطبعة: الأولى، 1417هـ- 1996م
42. (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تفسير النسفي -المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ)-حقيقه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي-راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو- الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت-الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
43. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي-المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 510هـ)-المحقق: عبد الرزاق المهدي-الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت-الطبعة: الأولى 1420 هـ.
44. معاني القرآن للأخفش -المؤلف: أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: 215هـ)-تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة-الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة-الطبعة: الأولى، 1411 هـ - 1990 م.
45. معاني القرآن وإعرابه-المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ)-المحقق: عبد الجليل عبده شلبي-الناشر: عالم الكتب - بيروت-الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م.
46. معاني القرآن-المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: 207هـ)-المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي-الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر-الطبعة: الأولى.

47. معجم مقاييس اللغة - المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) - المحقق: عبد السلام محمد هارون - الناشر: دار الفكر - عام النشر: 1399هـ - 1979م.
48. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير - المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.
49. المفردات في غريب القرآن - المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ) - المحقق: صفوان عدنان الداودي - الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة: الأولى - 1412 هـ.
50. من بلاغة القرآن - المؤلف: أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: 1384هـ) - الناشر: نهضة مصر - القاهرة - عام النشر: 2005.
51. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) - الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
52. النكت والعيون تفسير الماوردي - المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) - المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
53. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه - المؤلف: أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمَّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ) - المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي - الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة - الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.

فهرس الموضوعات

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| 3 | ملخص البحث |
| 5 | الهدف من البحث |
| 5 | إجراءات البحث وحدوده |
| 5 | الدراسات السابقة |
| 7 | القسم الأول: الجانب النظري |
| 7 | المبحث الأول: معنى القسم |
| 8 | المبحث الثاني: دلالة القسم في اللغة |
| 9 | المبحث الثالث: أهمية القسم في خطاب القرآن |
| 11 | المبحث الرابع: أساليب ورود القسم في القرآن |
| 11 | المطلب الأول: القسم الظاهر |
| 17 | المطلب الثاني: القسم المضمّر |
| 19 | المبحث الخامس: كيف نتدبر الآيات الواردة في سياق القسم |
| 20 | المطلب الثاني: على مستوى القرآن |
| 22 | القسم الثاني: الجانب التطبيقي |
| 26 | المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه |
| 28 | المناسبة بين القسم وموضوع السورة |
| 28 | الهدايات والفوائد من القسم في سورة الضحى |
| 31 | ثانيا: مثال تطبيقي لتدبر القسم على مستوى القرآن |
| 33 | المبحث الأول: القسم في سورة يس |
| 33 | نزولها |
| 33 | موضوع سورة يس |
| 33 | ومناسبة القسم الذي هو مفتتح السورة للموضوع |
| 34 | تفسير آيات القسم |
| 34 | (يس) |
| 37 | (الحكيم) |
| 41 | المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه |
| 42 | المبحث الثاني: القسم في سورة (ص) |
| 42 | نزولها |

منهجيات في تدبر القسم في القرآن الكريم مع بحثين تطبيقيين

| | |
|----|--|
| 42 | موضوع سورة ص |
| 43 | مناسبة القسم لموضوع السورة |
| 43 | تفسير آيات القسم |
| 47 | المبحث الثالث: القسم في سورة الزحرف |
| 48 | موضوع سور آل حم |
| 48 | موضوع سورة الزخرف |
| 49 | مناسبة القسم لموضوع السورة |
| 50 | التفسير الموجز لآيات القسم |
| 53 | المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه |
| 54 | المبحث الرابع: القسم في سورة الدخان |
| 54 | نزولها |
| 54 | موضوع سورة الدخان |
| 56 | التفسير الموجز لآيات القسم |
| 58 | المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه |
| 59 | المبحث الخامس: القسم في سورة ق |
| 59 | نزولها |
| 59 | موضوع سورة ق ومناسبة افتتاح القسم بالقرآن لهذا الموضوع |
| 62 | التفسير العام للقسم في السورة |
| 65 | جواب القسم |
| 68 | المبحث السادس: الفوائد والهدايات الجامعة بين السور الخمس المفتحة بالقسم بالقرآن |
| 71 | قائمة المصادر والمراجع |
| 80 | فهرس الموضوعات |